عماد عشا

لست عالمي

(رواية)



عماد عشا

لست عالمي

(رواية)

تصميم الغلاف :

إكرام زاهيد للتواصل

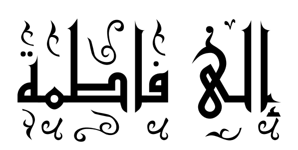
dihazikram@gmail.com

رقم الإيداع القانوني :

- 2019M06335

ISBN 978-9920-38-981-5

إهداء :



تسللت في جنح الدجى. توجهت إلى خيمته. دخلت عليه. ألفته نائما. هزته قائلة :

-استيقظ، كيف يعقل أنك ما تزال نائما.

استيقظ مثاقلا، وهو يمسح على عينيه قال:

-اعتقدتك كنت تمزحين أو تتآمرين ضدي لتعرفي نواياي.

لطمت آديمه بلطف، لثم ثغرها الأشنب. دفعته برفق خشية أن تستسلم له فيؤجلان فكرة هروبهما، بدا وكأنه استشعر خطورة الموقف فتيقظ. تبث إحدى الحقائب على ظهره، وحمل الأخرى بين يديه، أرادت أن تحمل عنه الحقيبة الأخرى، لكنه امتنع. مروءته تأبى أن يحمل المرأة، أي امرأة كانت ما لا تطيق، خرجا من الخيمة يسيران على عجل، حميد يسير بخطى متئدة كأنه في نزهة، بل وكأنه لم يسرق من سيده ماله وابنته الوحيدة، هو نفسه استغرب من استخفافه بهذا الموقف الذي يقتضي شد الأعصاب، والتزام كل الحيطة والحذر. حبيبته تخونها المسافة بين الخطوات كأنها تتعلم المشي لأول مرة، في قلبها الفزع الأكبر، هي تعرف أنها من أهل القبور لو ضبطها والدها بالجرم المشهود. لكن بعض الألوان من المشاعر تضطرنا للقبول ببعض المغامرات، ولو كانت ستلقي بنا في الهاوية.

سارا مسافة طويلة خيم الصمت فيها بينهما، مدت يدها تمسك بشحمة أذنه، يحلو لها أن تضغط عليها، وتلعب بها مثل صبية لم تبلغ الحلم بعد، ابتسم في وجهها، أحاطها بذراعه وانطلقا..

الليل تطوى له المسافات، هكذا قال عندما اشتكت له العياء وطول الطريق، ابتسمت معجبة بإجابته، فقالت :

- هب أن الليل تطوى له المسافات، لكن هذا لا يعني أننا سنصل بالسرعة التي وصل بها عرش بلقيس إلى سليمان، أمامنا ساعات من المشي، وإني أرى أن هذه الساعات خير الأوقات التي تحدثني فيها عن حياتك.

- لا شيء في حياتي يستحق عناء السرد.

- بل أنا مصرة على أن أعرف، وأستحق أن أعرف كل شيء.

- لك ما تريدين يا عزيزتي

ربما وافقت الفكرة هواه، ووجدها فرصة ليفرغ ما بداخله ليتخفف من ثقل آلامه، وفي ذلك أيضا بعض التزجية للوقت، فبالقدر الذي يحب هدوء الصحراء يخيفه سكونها وصمتها المطبق.

- اعلمي يا عزيزتي أني من المغرب غير النافع من جبال الأطلس المتوسط، وهي منطقة تقع بوسط المغرب، هناك نشأت وقضيت طفولتي، ونصيبا من الشباب قبل أن تسوقني الأقدار إلى هنا. لا أذكر عن حداثة سني الشيء الكثير، كنت آخر عنقود عند والدي. كانت ولادتي أعجوبة البلدة لأن والدتي كانت على مشارف سن اليأس، أو لعلها توهمت نضوب رحمها، أو توهم الناس ذلك، فاتخذ بعضهم منها هزءا وسخرية عندما حبلت بي، حتى إخوتي عذلوا والدتي عذلا شديدا. ورأوا في إنجابها مثلبة، ولعل عاذلها الأشد مضاضة هو أخي الموظف بإحدى البلديات، أما أختي المتزوجة فتفهمت الأمر في

النهاية لكونها امرأة، فيوما ما قد تجد نفسها في الموقف ذاته، لعلهم لم يستحضروا أنه كان مقدرا لي أن أخرج إلى هذا الوجود.

قيل لي أن والدي رحل لدار البقاء وأنا في الخامسة من عمري. أحيانا أتذكر بعض الأحداث المتفرقة عنه. لكنها أحداث مشكوكة، إذ كثيرا ما أظن أن ذاكرتي اختلقتها من كل الأحاديث التي سمعتها عنه.. كان رحيل والدي ووحدة أمي لتلك السنين إيذانا بسقوط والدتي. ساء حالها وصارت بحاجة للعناية.. اجتمع أخي وأختي في ميقات معلوم اتفقا عليه. وتحدثا عن الحلول الممكنة، وأنا على مقربة منهما. نظرت إلي أختي نظرات فيها بعض العطف والتحسر. وكأن مصيري قد حكما فيه. أما أخي فلم يلتفت إلي، ولم أستشعر منه يوما أدنى إحساس. كان يعاملني كأني مصدر كل شرور العالم. كأني المسؤول على كل شيء. أنهيا حديثهما ونادتني أختي. اقتربت منها. ضمتني بقوة وهمست في أذني.

- سترافق أخاك إلى أن تشفى أمنا.

تم اقتسامي أنا ووالدتي بين أخوي كما يقتسم الميراث، أختي ستتكفل بأمنا فهي أقدر الناس على رعايتها خصوصا بعد رضا زوجها وموافقته. وأخي سيتكفل بي، ولا نعلم بعد عن رضا زوجه. لكن في مثل هذه الحالات لا يسأل الرجل عن رضا زوجه، لأن في ذلك انتقاصا من الرجولة. بعكس المرأة لا بد من موافقة زوجها، ربما لأن الأمر مرتبط بالإنفاق. بحلول المساء كانت ملابسي موضبة في حقيبة جلدية من إرث أبي. أخي يسوقني أمامه كمن كلف بما لا

يعنيه. وإن حرص على التظاهر بالاهتمام أمام والدتي. لكنها أدرى الناس بطباعه. لذلك اغرورقت عيناها بالدموع وهي تشيعني للخارج بنظراتها.

نظرت خديجتو إلى الحقيبة التي يحملها بين يديه، إنها الحقيبة ذاتها التي جاء بها، فهمت الآن لم رفض أن يتخلص منها كما أشارت عليه. فمررت كفها على خذه تطلب الصفح. قبل اعتذارها المضمر، وقبل راحة يدها. فقالت :

- أكمل، أحب أن أعرف البقية.

- رافقت أخي وركبنا الحافلة لمدينة أزيلال. فهناك كان يشتغل. بلغنا منزله ووجدنا زوجه التي تزوجها حديثا مستلقية تشاهد التلفاز، حييتها بأدب كبير فردت التحية بأدب صغير. لم تكلف نفسها حتى عناء النظر إلي، طلب منها أخي أن تتبعه لغرفة نومهما، استجابت وهي مقطبة الجبين، وهناك تعالت صيحاتهما. خرج أخي وسيجارة تحترق بها روحه بين شفتيه. أشار إلي أن أتبعه، ودلني على غرفتي الجديدة، أعطاني بعض الأفرشة وطاولة ألقى عليها متاعي القليل، وهم بالانصراف.

لم أكثرت لكل ما حدث. خرجت وجلست بقرب زوجة أخي أشاهد التلفاز. تجاهلتني وتجاهلتها، قامت لغرفتها بعد حين، وبقيت أشاهد التلفاز إلى أن غفوت. استيقظت على صوت أخي وهو يأمرني بالتوجه لغرفتي. كانت أنفاسه معطرة بالكحول. قمت لغرفتي واستلقيت في فراشي، جفاني النوم، وزاد في أرقي التأوهات والأصوات المتقطعة التي كانت تصدر من غرفة نوم أخي، كانت تلك الليلة بداية تاريخ طويل من القهر والحرمان. قهر لن أنساه. لأن أثاره النفسية ما تزال جاثمة في نفسي..

سكت عن الكلام المباح واحترمت سكوته. نبرات صوته كانت تشي بحزن عميق.. سارا في صمت وهي تمسك بذراعه. بعد ساعة لاح لهما الطريق في الأفق. وأبصرا الشاحنة كما يبصر الملاح السفينة في البحر.. انقبض فؤاد خديجتو انقباضا شديدا. تسمرت مكانها، ووقف حميد يتأملها دهشا. ثم قال :

- ما بك ؟ ألا تريدين مرافقتي ؟

- اذهب يا حميد، أنت من الطلقاء.

امتقع لونه حتى ليكاد يتفجر غيضا، اغرورقت عينا خديجتو بالدموع، التفتت وركضت للعودة من حيث أتت. لم يلحقها حميد، تجمد الدم في عروقه. هل يرحل ويترك نصفه في هذه القفار، أم يبقى ويبني عشه في قفص ؟ وهل تبني العصافير أعشاشها في الأقفاص؟ كلا. إنها لا تفعل ولا ينبغي لها أن تفعل حتى لا تورث صغارها العبودية. تابعها بنظرات حزينة حتى اختفت، هبط الهضبة الرملية راكضا باتجاه السائق. نقده بعض المال ودار بينهما حديث قصير، ثم عاد يتتبع أثر خديجتو بسرعة البرق، ألفاها في مكان غير بعيد استسلمت للألم، وارتمت على ظهرها فوق الرمال، عيناها تتأملان نجوم السماء، والبدر الذي ينعكس نوره على حبات الرمل حتى لتبدو كأنها الذهب، مد يده إليها ليقعدها فاستمطرت لؤلؤا من مقلتيها. عانقها وعانقته. هي لا تدري كيف تجزي رجلا تخلى عن حريته من أجلها. سألته :

- لما عدت ؟

- لأني أحبك.

- لكن حريتك ...؟

وضع سبابته فوق شفتيها ثم قال :

- أعرف. إني أضحي بها من أجلك، عند مجيئي سلبت مني حرية جسدي، فسلكت مسلك اللامبالاة في كل شيء لعلي أسلو عنها، وكنت أعوض عنها بحرية النفس التي كنت أترفع بها عن كل السفاسف، لكن هذه النفس هوت، وتعلقت بك فخبرت لونا جديدا من الرق اختارته عن طواعية، والدك استعبد جسدي وسخره لخدمته قهرا. وأنت استعبدت نفسي وروحي وأحاسيسي عن طواعية مني، لقد أغرتني فكرة الهرب لكني لم أكن لأكون أحسن حالا، صحيح أني سأحصل على حرية الجسد، لكن روحي ستظل هائمة ها هنا. ستحوم حولك دائما لتخبئيها من الخطوب ..، وإني أستحسن هناء الروح على هناء الجسد.

عانقته حتى التصقا شفة فشفة، صدرا فصدرا، بطنا فبطنا..، عادا والليل يطوي لهما المسافات، أخبرها في الطريق أنه نقد سائق الشاحنة بعض المال حتى يفي بوعده. كانت سعيدة لأنها لم تنفذ فكرة الهرب، وحفظت ماء وجه والدها، بل وأنقذته من وضع حد لحياته. ثم قالت له:

- أمامنا بعض الوقت قبل بلوغ المنزل. فحدثني ببقية قصتك يا أنا ؟
- يحق لك الآن معرفة كل شيء يا سيدتي.
- ضربته على صدره وقالت متذمرة :
- لا تناديني هكذا، إنك تصطنع المسافات بيننا.
- حسنا يا خديجتو، وتبسم..

- قلت لك أن أول ليلة لي بمنزل أخي كانت بداية تاريخ من القهر والحرمان. فقد التحقت بالتعليم الإعدادي السنة الثالثة. وليس لي من الملبس إلا ما جئت به من منزلنا. وما إن تقدمنا في الموسم الدراسي حتى طلع علينا موسم البرد والثلج. فزع الناس للملابس الشتوية التي تقيهم البرد، ووجدتني صفرا من هذه الملابس. شكوت حالي لأخي فأعطاني معطفا كان قد استغنى عنه. لبسته فغطاني بالكامل وكأني ألبس جلبابا، قبلت به ورضيت وحمدت الله لأني نعمت ببعض الدفء، تجاهلت نظرات بعض أشباه المترفين الساخرة في المؤسسة وخارجها، كان الدفء أهم شيء بالنسبة لي آنذاك، ذكرتني مسألة الدفء بقصة طريفة كانت تحكيها والدتي عن رجل أمازيغي في جبال الأطلس خرج ليحطب فأوجعه البرد وجعا شديدا، وعندما ولج منزله أوقد نارا وحينما عمه الدفء رفع يديه للسماء وقال :

– اللهم اجعل مثل هذه النار في قبر والدتي.

كنت أسمع قصته تلك فأعجب من سذاجة الرجل، لكن عندما لفحني البرد أحسست بصدق دعوته، ففي تلك اللحظة تراءت له النار نعيما، لا وسيلة عذاب..

- خفف المعطف من أوجاع البرد التي كنت أقاسيها، وتبقت مشكلة لا تقل خطورة، الأكل، البرد والجوع مصيبتان إذا اجتمعتا على إنسان أهلكتاه، كانت زوج أخي تقطر علي في المأكل تقطير الشاعر البحتري على أخيه وخادمه. وكثيرا ما كانت تخبئ الخبز في غرفة نومها فلا أجد إليه سبيلا لأن الغرفة من المحظورات، فأنا لم ألجها ولا رأيتها من الداخل طول مدة إقامتي هناك.

كانت غرفة الأسرار بالنسبة إلي. غرفة ارتبطت بالتآوهات والهمس حينا، وبالضرب والصراخ حينا آخر، بالطبع لم أحدث أخي عن الجوع الذي يفترسني، فهو لم يكن ليحدث فرقا. لكن الله رحيم ويسخر للمعذبين أمثالي بعض الأخيار، ومن هؤلاء الأخيار ابن خليفة قائد ضحكت الدنيا في وجهه، وتيسرت له سبل العيش بفضل أبيه، هندامه أنيق يشي بأنه محط عناية واهتمام. وجيبه لا يخلو من قطع نقدية تيسر له شراء كل ما يشتهيه. وكان يعطف علي أحيانا فيلقي إلي ببعض مما يشتريه من حلوى، وما شابه ذلك، وذات يوم رافقته إلى منزله. لم يكن بالمنزل سوى الخادمة. اتجهنا لباحة المنزل حيث كلبه. أخرج عددا من علب السردين ليطعم الكلب. نظرت إليه باستغراب. وقلت دهشا :

- هل تطعم الكلب من علب السردين هذه ؟

قال نعم. واستنكر سؤالي.

ببراءة قلت له :

- ألا أدلك على كلب آخر أحوج من كلبك لبعض هذه العلب؟.

نظر إلي باستغراب وقال :

- أين؟

- إنه أمامك.

- أتقصد نفسك !

- نعم.

ضحك حتى سقط أرضا، لم أغضب، ولا حسبت ضحكه من قولي استهزاء، أو اعتبرته إهانة بل شاركته الضحك، ومنذ ذلك اليوم صار يطعم كلبين. وخصص لي علبة سردين كل يومين يأتيني بها، فأكل النصف وأحتفظ بالنصف للغد. بذلك ضمنت ما كان ينقصني من الغذاء طوال السنة، لكن في السنة الثانية انقطع ذلك المورد. إذ انتقل خليفة القائد لمنطقة أخرى عين فيها قائدا، وارتحل ابنه المحسن معه، فكانت سنة ذات مسبغة.

- في السنة الثالثة ألفيت نفسي قد بلغت من القهر شأوا كبيرا. وكنت آنذاك في الأولى باكالوريا، شرعت في التغيب عن الدروس. وخبرت أضربا كثيرة من التسكع ورفقاء السوء كنوع من التمرد، بلغ الخبر أخي فعكف على جلدي أياما متتابعة حتى استقمت كما أمر، اغتنمت زوجة أخي فرصة سلوكي غير السوي فاختلست نصف راتب أخي ذات يوم، واتهمتني بالسرقة. أرغد أخي وأزبد، اتجه إلي يستفسرني عن المال المفقود، استجوبني وحزامه الجلدي في يده، استشعر الصدق في دموعي وفي قسمي بأغلظ الأيمان، استدار ودخل غرفة نومه، جلد زوجه جلدا قاسيا حتى اعترفت، كان من الممكن أن أكون الضحية، لكن أخي لم تخنه فراسته. لعله حدس أني لست باللص الكبير حتى أسرق نصف راتبه، أو لي القدرة على اقتحام غرفة نومه التي لم تقع عليها عيني يوما من الأيام، لم تشفع لي البراءة من النجاة من سوط أخي دائما. فكثيرا ما جلدت ظلما وعدوانا، وسقطت فريسة لمكائد زوجة أخي. وإني أذكر يوما عصيبا أتلفت فيه غطاء المائدة البلاستيكي فخاطته. وعندما لاحظ أخي ما في الغطاء الرخيص في السوق والغالي على قلبه من ضرر، غضب غضبا شديدا،

وكان لابد لأحدنا أن يعاقب، وكنت أنا المعاقب، لأنها أقنعته بمكر شديد أني الفاعل، هذا غيض من فيض، ونزر يسير فقط مما كانت تدبره لي، أو مما كانت تتبرأ منه وتحملني إياه. لقد كان أخي أيضا شديدة المحاسبة معي. أذكر الصفعات التي كان ينهال علي بها كلما استعملت شفرات الحلاقة الخاصة به لجز الشعيرات المعدودة المنتشرة في ذقني معلنة على دخولي مرحلة جديدة من الفتوة والشباب. لا أدري كيف كان يفكر ! لم يكن يعطيني فلسا واحدا، فكيف لا أسرق معدات الحلاقة الخاصة به!

- يبدو أننا بلغنا المنزل. وآن لي أن أتوقف عن الكلام، اذهبي. سأعود لخيمتي.

وصلا بعد الفجر بقليل، افترقا كأن شيئا لم يحدث الليلة، ما إن دخلت خديجتو، وهي تمشي على أطراف أصابعها حتى بُغِتَتْ بيد تمسك بكتفها، كانت والدتها، صعقت من الصدمة، أشارت لها الأم بأن تتبعها للمطبخ. واجهتها بكل شيء ثم قالت :

- أين كنت؟ وماذا كنت تفعلين مع حميد ؟

التزمت خديجتو الصمت.

صفعتها والدتها من دون شعور، وهي التي لم تؤدبها يوما بالضرب أو التعنيف.

- أخبريني بما يحدث. تعلمين أن والدك يصارع المرض، وهو لا شك هالك إن علم بما يسوء شرفه. وإنه لقاتل حميد إن استشعر خطبا ما. وأنت أدرى الناس به.

استمالت الأم عاطفة ابنتها فأشفقت على أبيها، وخافت على حياة رجلها، ولم يكن هناك من بد لتعترف لوالدتها بكل شيء، حدثتها عن محاولة الهرب، وكيف أن حميد استرخص حريته في سبيل الحب وشرف أبيها. أحنت الأم رأسها، وغرقت في تفكير عميق.. ثم قالت لابنتها :

- اذهبي لغرفتك. اخلدي للنوم، سنتحدث في هذا بعد حين.

عادت الأم واضطجعت بجانب زوجها لكن النوم جفاها. فقامت وجلست على كرسي تسند رأسها على كفها، وهي غارقة في التفكير. ظلت على حالها ساعات حتى استيقظ سيد القوم. استغرب من وجومها. استفسر عن حالها فقالت.

- قم أريد أن أتحدث معك في أمر خطير.

قام مستويا وهو يقاوم العياء والعجز الذي يتربص به، فهو لم يسمع الغالية تتحدث بهذه النبرة منذ عهد طويل.

- خيرا يا امرأة؟

- خديجتو.

- ما بها خديجتو ؟ هل أصابها سوء؟

- حفظها الله من كل سوء.

- ما بها إذن ؟

- خديجتو في علاقة مع حميد.

صدم لهول الخبر. قام بكل قوته مزمجرا يطلب منها أن تمده ببندقيته، وعيناه متقدتان بشرارة من النار، متوعدا حميد أن هذا الصباح هو آخر عهده بالحياة.

اندفعت زوجه إليه وهي تهدأ من روعه قبل أن يتهادى ويسقط أرضا، أقعدته على السرير تطمئنه أنه لم يحدث شيء بينهما:

- اهدأ يا سيد القوم. إن ابنتك عاقلة متزنة لا تقدم على ما يشينك. وحميد رجل شريف، طيب السجايا، دمث الأخلاق. ولولا طيبة سجاياه ودماثة أخلاقه وصدق مشاعره لما وجدت له أثرا، ولو بحثت عنه الصحراء ببندقيتك، اسمع مني بما حدث أولا ثم لك الحكم، اعلم أنه وخديجتو دبرا لهروبهما الليلة الماضية، واتفقا مع صاحب شاحنة أن ينتظرهما في الطريق. ووجداه في الانتظار. لو استقلا الشاحنة لاختفيا إلى يوم البعث. لكن خديجتو آثرت حب الأب على حب العشيق، وأشفقت عليك فعادت ونكثت بوعدها لحميد. ولما رآها حميد تراجعت إشفاقا عليك آثر هو الآخر حبه على حريته. وإني أنتظر منك أن تكون حكيما في أي قرار تتخذه.

شرد ذهنه وطفق يفكر طويلا فيما سيقدم عليه. أمامه اختياران أحلاهما مر. فإما أن يزوج ابنته لابن أخيه، وهو أعلم الناس بأنه يضحي بها ويسلمها للجلاد عن طواعية، أو أن يبارك علاقتها بحميد ويزوجهما، وبهذا يكون ارتد عن الأعراف والتقاليد، وأوقد نار العداوة بينه وبين عشيرته. إذ لن يوافقوا على هذه الزيجة لأنهم سيتذرعون بأنها تطيح بأصولهم وإرث آبائهم، وإن كانت الحقيقة المغيبة هو خشية ضياع ثروة سيد القوم، وانتهاؤها بيد حميد الغريب. سيد القوم يحب ابنته وهو يعلم حق العلم أن حبل حياته يتآكل. وما هي إلا أيام أو أشهر حتى يقعده المرض ويسلمه لربه. يخاف أن يتخذ قرارا يندم عليه ندما يلحقه حتى في قبره. نظر إلى زوجه وقال آمرا :

- اخرجي ؟ لا أريد أن أرى أحدا.

- اهدأ يا سيد القوم، أنت مريض؟

- أخرجي ..

غادرت الغالية غرفة زوجها وهي تنتحب، وعقلها يصور لها نهايات قاتمة لا تبقي ولا تذر، دخلت الغالية عند خديجتو وهي تولول، بكت خديجتو أيضا ظلتا تبكيان كل ساعة، والأب في غرفته لا تعلمان عن حاله شيئا، تخشيان معا في سرهما أن يكون قد أقدم على إيذاء نفسه، تنازعهما نفسيهما إلى اقتحام غرفة سيد القوم للاطمئنان عليه، لكن لا واحدة منهما تمتلك الشجاعة لذلك، بعد ساعات سمعت الغالية سيد القوم ينادي باسمها، هرولت نحو غرفته واقتحمتها، ألفته مسندا رأسه على كفه مقطب الجبين، قال دون أن ينظر إليها :

- فلتدخل خديجتو.

- فلتؤجل الموضوع أرجوك، أو أخبرني على الأقل ما تنوي فعله.

أعاد طلب خديجتو بلهجة آمرة أشد من الأولى، فقامت زوجه بتلبية أمره. أما حميد في تلك الأثناء فلم يتوجس خيفة من تلك الليلة العصيبة بل دخل لخيمته وأخذ زاده، ثم قاد إبله ليرعاها في الصحراء الشاسعة، نادت الأم على خديجتو وأنبأتها بكل شيء، أوصتها ببعض الوصايا التي تتبعها في حضرة استجواب الوالد لها، دخلت الحجرة على والدها والرهبة تغشاها، دعت ربها قبل أن تدخل عليه أن يفك عقدة لسانها ليفقه أسباب الإقدام على فعلتها، وقفت أمامه وجسدها يكاد يتهاوى من شدة الخوف. رفع سيد القوم رأسه يتأملها، شعر كأن خديجتو قد كبرت بين ليلة

وضحاها. فهو الذي كان ينظر إليها حتى البارحة كالطفلة. تغيرت نظرته إليها وصار يراها امرأة تحتاج رجلا بعد أن وقعت في الحب، زاد صمته من فزع خديجتو، أخدت شفتها السفلى ترتعش من الخوف، أشار إليها أن تقترب منه، اقتربت بخطى حذرة يعبث بها الوجل. أجلسها بقربه ومسح على رأسها، لكن العطف الذي أظهره اتجاهها لم يشفع للطمأنينة بأن تتسرب لأعماقها المضطربة، قال لها بعدما شخص ببصره إلى الأرض:

- تعلمين يا ابنتي أنك أعز ما أملك في هذا الوجود. وأني حاولت كل جهدي لأتفانى في رعايتك. إن وفقت فهذا ما كنت أبتغيه، وإن قصرت فلأني إنسان غير كامل. وتعلمين يا ابنتي أنه لم يتبق في عمري الشيء الكثير، وقد كنت أؤجل مسألة الحسم في مستقبلك ساعة بعد ساعة، وإن كنت أعلم علم اليقين أن النهاية تدنو شيئا فشيئا لأني كنت أخشى تسليمك لابن عمك. وأنا أعلم الناس أنه سيحب مال أبيك أكثر مما سيحبك، بل وأنك لا تضمرين له عاطفة أو أي شعور. وقد كان أكثر ما أخشاه هو أن ألفظ آخر أنفاسي قبل أن أؤمن مستقبلك أنت وأمك فأموت وفي قلبي آلاف الحسرات.

قبل أن يسترسل في كلامه ارتفع نحيب الزوج التي عز عليها أن ترى سيد القوم بهذا الانكسار والضعف وهو القوي صاحب البأس الذي يفزع لبندقيته كلما أشكل عليه أمر. تألمت لرؤية زوجها في هذه الحال من الوهن منذ أن ارتبطت به، وأثر فيها انشغاله العميق في صمت بمآل أسرته. أما خديجتو فانقلب كل خوفها دموعا سالت على خديها منهمرة، ورأسها مطمور في حضن والدها. ربت على كتفيها وقال :

- لقد حدثتني والدتك بوقائع الليلة الماضية. وإني لا أخفيك أن الحمية والعصبية اشتعلت بداخلي ولو كان حميد أمامي لأفرغت في صدره كل رصاص بندقيتي. لكني بعدما استكنت وهدأ روعي رأيت في حميد مكامن الشرف. وأنه أولى الناس بك. إن رجلا قايض حريته بحبه هو وحده الجدير بك، وهو وحده أعهد بك إليه وأنا قرير العين. وفي الجانب الآخر ابن عمك تجمعك به رابطة الدم ومن أهلك وعشيرتك، والوفاء للتقاليد يقتضي أن ترتبطي به، لكني لا أرتاح لطباعه، فهو يؤثر حب المال قبل كل شيء، ولن تجدي فيه ما يشبع خيالك ويرضي حاجاتك، إذ إنه منصرف للدنيا بعقله وأحاسيسه ولا مكان في قلبه لإنسان.

ظلت خديجتو شاخصة ببصرها إلى الأرض والدموع تتعلق بأهدابها كما تتعلق قطرات الندى برؤوس السنابل. وضع سبابته تحت ذقنها ورفع رأسها حتى تقابلت عيناهما ثم قال بصوت رخيم :

- إن لك الاختيار يا ابنتي. إن اخترت حميد فأنا إلى صفك، وإن اخترت ابن عمك فأنا أدعمك.

ظلت صامتة لا تقوى على الكلام..

- اختاري يا ابنتي. أنا بانتظار جوابك.

- أريد العيش مع حميد يا أبي. لكن عقلي يرفض فكرة الإساءة إلى اسمك بعد رحيلك، فيقال بأنك اخترت غريبا على واحد من بني جلدتك.

- لا يا ابنتي. إن اهتمامنا بما قد يقال بعد رحيلنا أكبر خطأ نرتكبه. عندما نرحل عن هذه الحياة الدنيا فإن كل شيء ينقطع. فيما يفيد تكريمنا بعد الموت ؟، لا شيء. وإن من الحماقة أن نترك وراءنا من يتعذب لأجل أن نذكر بخير. بل إنه من التفاهة أن نتسبب في شقاء شخص نحبه ولو كان سيخلدنا التاريخ. تلك أشياء لا تفيد الميت في شيء.. سأرحل. وأريد أن تكوني أنت وأمك سعيدتين. لا أن ترضى عني عشيرتي فتشقيان..

- أختار حميد يا أبي.

- لك ما شئت يا ابنتي.

عاد حميد في المساء يسوق إبله مطمئن البال مثل عادته. لاحت له خديجتو في الأفق تنتظره بشغف وشوق كما تنتظر المرأة زوجها العائد من ساحة الوغى. تجاهلها واستدار منشغلا بالإبل فنادته. وطلبت منه القدوم. وقف أمامها وانتظر منها طلبها. أمسكت بيده وساقته للداخل. لم يسأل عن السبب. كانت اللامبالاة التي تطبع حياته حاضرة حتى في تلك اللحظة التي تستدعي التوجس والحذر. قالت له بما يشبه الهمس :

- أبي يريد التحدث إليك.

لم يسألها عن مناسبة هذا الحديث. بل اكتفى بإيماءة تعبر عن الموافقة.

دخل حميد على سيد القوم بعدما آذن له بذلك. كان قد عرف صدره منذ لحظة بعض الراحة بعد نوبة سعال شديدة، حياه حميد باحترام فيه أنفة كما اعتاد أن يحييه

دائما. طلب منه سيد القوم بنبرة أبوة أن يدنو منه. فدنا. أمسك بمعصمه وأجلسه بقربه على السرير فقال :

- لقد علمت بكل شيء. ولا أدري هل يحق لي أن أطلب منك شيئا بعد الذي فعلته بك. لكني على يقين أنك تحب خديجتو. وأنك ستبذل حياتك فداء في سبيل حمايتها. اعلم يا بني أني أريد أن أزوجكما قبل أن أرحل عن هذه الدنيا. وقد فكرت أن أبيع كل شيء وأمكنكما منه، ولكما أن تنتقلا حيث شئتما.

ظهر التأثر على محيا حميد، تأثر لحال الرجل، لم يره بهذا الانكسار يوما، ويعلم أيضا أن الفكرة المطروحة متعذرة التحقق فخديجتو لن تفارق أباها تحت أي ظرف، وبينما هو مطرق يقلب المسألة على وجوهها، قال سيد القوم:

- أنت حر في قرارك يا حميد. إن شئت زوجتك ابنتي، وإن شئت الرحيل فأنت حر طليق.

- اعلم يا سيدي أني لو وددت الرحيل لرحلت منذ زمن. ولكني أحببت سحر المكان. وأهل المكان. هنا فقط استطعت أن أتصالح مع ذاتي وأكتشفها.. مسألة الرحيل مع خديجتو متعذرة كل التعذر. شق عليها فراقك من قبل، وسيشق عليها في كل حين..

- يا بني، إن الإنسان يتخلى عن الكثير من الأفكار التي كان مستعدا ليموت من أجلها في وقت ما، والأفكار التي لا يتخلى عنها تقتله. وهي الأفكار التي تكون كالوشم.

- إن أفكار خديجتو مثل الوشم. لن ترحل بدونك.

- سأبقى هنا وسترحل مع خديجتو . وفيما بعد ستلتحق بكما الغاليا.

- لكن لما لا ترحل معنا منذ الآن؟

- بقائي هنا هو من تلك الأفكار التي كالوشم لا تزول. لا تجادلني في هذا يا حميد. هذه الرمال فقط ستضم عظامي

- كما تشاء سيدي

- حميد هناك أمر ما يزال يقلقني.

صمت حميد وانتظر أن يفصح سيده عن هذا الأمر الذي يقلقه.

- هذه اللامبالاة التي تتلبسك، أو تتلبسها يا حميد غير نافعة منذ الآن. لأنك لم تعد وحدك. صرت مسؤولا عن أشخاص آخرين.

استغرب حميد من هذه المؤاخذة، لكنه حملها على محمل الجد. صحيح، إنه مسؤول الآن عن أشخاص أخرين.

- اطمئن يا سيدي.

قام حميد لينصرف. فاستبقاه سيد القوم وقال :

- لا ترعى الإبل في الغد، غدا نتوجه إلى المدينة ننجز عقد قرانك بخديجتو، وتفتحان حسابا بنكيا مشتركا، علينا أن نعد كل شيء في أقرب وقت. نادى سيد القوم على الغاليا وخديجتو، ليستشيرهما فيما هو على وشك الإقدام عليه.

طار قلب خديجتو من الفرح عندما سمعت بخبر عقد القران. أما الغاليا فاكتفت بالابتسامة ومعانقة ابنتها مهنئة هاشة في وجهها. أشار سيد القوم لحميد وابنته بالانصراف. واستبقى الغاليا نظر إليها نظر الخبير بنفسيتها ثم قال:

- اجلسي يا لغاليا. أحس بمرارتك. وأعلم علم اليقين أنك تحبين خديجتو وتحبين أن تزوجيها وفق الطقوس والعادات، أعلم أنك كنت لتكوني سعيدة لو كان في عرس ابنتنا (الترواغ) حيث سيمتحن حميد لمعرفة مدى تعلقه بزوجته وحبه لها، إذ ستتبعين قدر ما يبذل من جهد في البحث عنها بعد أن تخبئها صديقاتها ويطوي من المسافات في سبيل ذلك ويتصبب منه العرق، وقدر ما ينفق ويستجيب من شروط صديقات خديجتو، فتقيسين من كل ذلك مقياس حبه لها وتعلقه بها. أو تلومينه إذا أظهر عدم اهتمام بالموضوع، أو لم يبذل جهوداً في البحث عنها، حتى لا يكون ذلك دليلا على برودة حبه لها، ولا يشكل نقيصة تعيَّر بها العروس بين صديقاتها في المستقبل. لكن كل هذا لا يساوي شيئا أمام موقف حميد تلك الليلة. لقد برهن على حبه دون شهود في حضرة الرمل والقمر.

أومأت له الغالية برأسها تعبيرا عن موافقته الرأي.

- أعلم أيضا أنك تستشعرين النقص في هذا الزواج لأن عائلة العريس غائبة وليس العريس من أبناء عمومتنا ولا قرابة بيننا وبينه، بل لا نعلم شيئا عن أهله، وأن العرس لن يكون بالبذخ المعهود في مجتمعنا بل لن يعلم به أحد. لا إعلان

ولا أهازيج ولا رقص.. لكن ابنتنا ستكون سعيدة يا الغالية. تعلمين أنها حساسة جدا، إنها حساسة ومدللة، لا أحب كسر خاطرها.

بحلول الغد ذهب سيد القوم إلى المدينة، وعقد قران حميد وخديجتو وإن كان القران عقد بالطريقة الحديثة، وليس كما تفرض التقاليد، فقد حضر العروسان عقد قرانهما وحفلة الزفاف لم تنطلق بعد إتمام العقد وقراءة الفاتحة، ولم تطلق النساء زغاريدهن التي تكسر صمت الليل الصحراوي. وقد جرت العادة أن تتم كل العقود في المساء، لكن عقدهما جرى في الصباح. لم تلبس العروس الزي التقليدي، وهو عبارة عن ملحفة سوداء عليها شال أبيض، وتتزين وتخضب يديها بالحناء، وتتحلى بحلي تقليدية مصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة. ولم يرتد العريس دراعته البيضاء وهي دشداشة واسعة، ويطوق عنقه بلثام أسود. كل هذا كان غائبا، لكن القلوب كانت مطمئنة، فتح لهما سيد القوم حسابا بنكيا مشتركا حول إليه كل ما يملك في البنك.. عادوا أدراجهم وكان سيد القوم يقود سيارته بشق الأنفس. استسلم في نصف الطريق فتوقف. أخذ حميد مكانه وطلب منه أن يملي عليه ما يفعله. فأملى عليه خطوات السياقة وقاد حميد باحترافية جعلت سيد القوم يندهش من سياقة حميد رغم عدم توفره على رخصة للسياقة. بلغوا المنزل. واتجه حميد إلى خيمته. ضحك سيد القوم حتى ظهرت نواجده ثم ناداه.

- يا حميد هذه ليلة عرسك. اذهب مع زوجك. المنزل منزلك هذه الليلة، فمع حلول الصباح سيعود كل شيء كما كان، لا ينبغي أن يعرف أحد بما جرى.

وبذلك أوصى سيد القوم زوجه وابنته.

دخل حميد على زوجه. تحدثا. أراد أن يباشرها فتمنعت لخوف أو عدم استعداد، طلبت منه تأجيل الأمر، وافق بكل أدب. أخمد تمنعها نيران الشهوة المشتعلة بداخله. كبر في عينيها أكثر، وحمدت ربها على هذه الأعطية. ثم طلبت منه أن يقص عليها بقية قصة حياته وكذلك الظروف التي جمعته بوالدها وساقته إليها. أحاطها بذراعيه ووضع رأسه فوق صدرها ثم قال :

- لك ما تريدين. لن أحدثك بأكثر مما حدثتك به عن عيشي مع أخي. سأختصر لك تلك السنون الأخيرة في بعض الجمل لأن فيها ألما كثيرا. بقيت في كنف أخي حتى بلغت الثامنة عشرة من العمر. وكنت في مستوى الثانية باكالوريا. ذات مساء دخل أخي المنزل دامع العينين. عانقني وبكى. طلب من زوجه أن تجهز نفسها للرحيل. رجوت الله في سري ألا يكون ما أفكر فيه صحيحا. استفسرت أخي فأخبرني أن أمي توفيت. صمتت، شعرت أني لم أعد ذلك المراهق بل شخت فجأة. فاضت عيني بالدموع. قبل أن نخرج من المنزل أمدتني زوجة أخي بمحفظة ملابسي. كأن مقامي هنالك سيطول. أمسكتها. دفنا والدتي وصرت كالمتشرد أعيش على عطف الناس، وكثيرا ما تغيبت عن المنزل وحدث أن تغيبت لثلاثة أيام قضيتها عند صديق طفولة حاول أن يخفف عني ألم الفقد واليتم. عدت للمنزل ووجدت أخي قد رحل وأوصى أختي بأن تبعثني إليه. أختي امرأة حنونة لكن أولادها وعائلة زوجها استنفذوا قواها العاطفية، ولا أريد أن أزيدها ثقلا. جمعت قوالب السكر التي أتى بها المعزون. بعتها. وفي الصباح حملت حقيبتي الجلدية واتجهت إلى

مدينة أكادير. المدينة التي يتوسم فيها شباب وشابات الأطلس العيش الطيب فيخيب ظنهم ويقايضون سنين عمرهم بدراهم معدودات، ترجلت من الحافلة في مدينة إنزكان ظننت أن المدن الصغيرة أرحم من الكبيرة التي قد تبتلع الوافدين إليها. ابتعدت قليلا عن المحطة الطرقية. جلست تحت شجرة. أتى إلي رجل يظهر عليه أنه من أهل سوس. يلبس قميصا تقليديا ويضع قلنسوة مزركشة. كان خطيبا مفوها. وكأنه يحفظ ما يقوله. سألني إن كنت أبحث عن عمل. قلت له نعم. قال أنه سيجمعني بأحدهم سيشغلني مقابل أن أعطيه خمسون درهما مقابل خدمته. وافقت بعدما أغراني أني لن أصرف مليما في هذا العمل. وأن المشغل سيوفر لي كل شيء. رافقته في بعض الدروب والأزقة حتى بلغنا باب مطعم صغير. طلب مني أن أمده بالخمسين درهما. ففعلت. وأشار لي أن أتبعه لداخل المطعم. عرفني على المشغل الذي لم يكلف نفسه عناء الحوار بل ألقى إلي مفاتيح السيارة، وقال انتظرني في سيارة لاند روفير المركونة بالخارج. كان هذا المشغل هو ابن عمك..

انطلقا بالسيارة، لاحظ حميد أنهما يغادران مدينة أكادير فظن أن الضيعة تقع في أقاصي المدينة، لكن المسير استمر لساعات دون أن ينبس السائق ببنت شفة، ساورت الشكوك حميد، واستفسر السائق بلهجة حادة،

- إلى أين نحن ذاهبون؟

ركن السيارة وقفز خارجها، فتح باب الصندوق وأخرج بندقيته ثم صوبها نحو حميد آمرا إياه أن يترجل، وقف حميد أمامه صامدا وجها لوجه لم يبد أدنى خوف، عرف الرجل أن مسعاه في تخويفه قد فشل فقال بلهجة استعلاء :

- لا تحدثني بتلك الطريقة مجددا وإلا نسفت رأسك.

لم يرد حميد على كلامه، طلب منه أن يجلس بالمقعد الخلفي ليأمن أي هجوم منه ، لأن بين مقعد السائق والمقاعد الخلفية شباك ضيق، امتثل تحت تهديد السلاح، وانطلقت السيارة تلتهم الطريق التهاما، عرف حميد أنه مقتاد قسرا لمصير مجهول، كان لديه يقين أنه سيباع في السوق السوداء، لكن لأي غرض، ربما سيوظفونه في التهريب بين الحدود المغربية والموريطانية، أو ربما سيبيعون أعضاءه لتجار الأعضاء البشرية، لكن شعاعا من الأمل لاح له في الأفق، إن الطريق لابد أن يصادفوا فيها حواجز للشرطة أو الدرك، كان هذا الأمل الوحيد لفتى أعزل أمام رجل مسلح. لكن لم يمر وقت كثير حتى جنح السائق بسيارته إلى الصحراء الشاسعة فضاع كل أمل، واستسلم حميد لقدره المحتوم، وبحلول المساء، وجد نفسه يسلم لرجل كما تسلم السلعة أو المتاع، تفحصه الرجل الذي تسلمه بنظرات حادة وهو يفكر كيف لفتى ناعم الكفين كهذا أن يرعى الجمال في الصحراء. ألحت عليه بعض الظنون بشأن ابن أخيه فهو يعرفه حق المعرفة ويعرف أنه قادر على الإتيان بما لا يقدر عليه غيره. أراد أن يتأكد ليدفع عنه هذه الظنون. بل لقد كان يعرف أن أسئلته التي سيلقيها غير كافية لمحق ظنونه لكنه أراد أن يريح ضميره ولو أوهمه بذلك. ثم سأله.

- ما اسمك ؟

- اسمي حميد.

- وكم عمرك ؟

- في العشرين.

- هل سبق أن تمدرست ؟

- نعم بلغت البكالوريا ثم انقطعت.

خشي أن يستمر في الأسئلة فتتأكد له ظنونه بأن ابن أخيه قد اختطف حميد فانخفضت حدة كلامه وهو يقول لحميد دون أن ينظر في عينيه مباشرة :

- عملنا هنا وإن كان لا يحتاج ثقافة إلا أنه يسعدني أنك أصبت حظا من التعليم.

بالفعل لقد أسعده ذلك، فبالنسبة إليه لا يستوي الجاهل والذي تلقى تعليما ولو كان قليلا. سأل سيد القوم حميد بحزم :

هل أستطيع الوثوق بك يا حميد ؟

نعم يا سيدي ؟

وهل تقبل العمل عندي ؟

أومأ له برأسه دلالة على القبول. وَدَّ لو أنه ينفجر في وجهه، ويخبره أنه مختطف. لكن ما يدريه أن الرجل الواقف أمامه مثل ابن أخيه ؟ فوض أمره إلى الله وقاده سيد القوم إلى خيمته شرح له كل شيء يتعلق بالمهام الموكولة إليه. التفت يمنة ويسرة داخل الخيمة لفتت محتوياتها انتباهه. هناك تلفاز مقابل لسرير مريح وسط الخيمة، وفي أقصاها من جهة اليمين ما يشبه المطبخ العصري، لو بنيت جدران حوله فقط

لصار عصريا بالفعل. وفي الجانب الآخر من اليسار خزانة ملابس من الخشب وآنية ماء. لقد كان في الخيمة كل ما قد يحتاجه الإنسان من وسائل العيش في هذه الصحراء، قبل أن ينصرف سيد القوم قال لحميد .

- استرح. سآتيك بطعام وشراب تصيب منه لعلك تكون لقيت من سفرك نصبا.

الأفكار تتقاذفه قذفا. فهو لم يستوعب بعد ما يحدث. الجو حار جدا، ملابسه الضيقة تكاد تحبس أنفاسه وهو غارق في أفكاره وساخط على وضعه كل السخط، أتاه سيد القوم بلباس صحراوي فضفاض وبأكل فوق حاجته. ثم قال له سأعود بعد قليل لأصطحبك وأعرفك على الأسرة فأكثر تعاملك سيكون معها، غير ملابسه وأصاب بعض الطعام، بعد مدة عاد سيد القوم واصطحب حميد إلى الخيمة التي تبعد عن خيمته ببعض خطوات وهي خيمة مصممة على شكل مثلث، وقد تعجب حميد من هذا التصميم بداية الأمر لكنه علم فيما بعد أنه تصميم مقصود لأنه يقي الخيمة من الزوابع الرملية وهطول الأمطار.

باب الخيمة مفتوح نحو الشرق، دلف سيد القوم إلى الخيمة وطلب من حميد أن يدخل. سحرته الخيمة وكأنها خيمة أسطورية اقتطفت من كتاب، الخيمة مؤثثة بالسجاد والزرابي المصنوعة محليا، بها طاولة مصنوعة من الخشب بارتفاع متر تقريبا. وبها تلفاز ولوحات فنية جميلة، قال له سيد القوم :

- هذه خيمة الضيوف. اجلس. سأنادي على أفراد الأسرة لتتعرف عليهم.

جلس حميد القرفصاء داخل الخيمة. وهو لا يعرف حتى الذين سيلتقيهم. بعد دقائق دخل سيد القوم وأشار لحميد بالوقوف فامتثل للأمر. دخلت امرأتان الخيمة وهما في لباسهما الصحراوي ولا يظهر منهما سوى العيون. حدس حميد أنهما امرأتان متفاوتتان في العمر لعلهما الأم والابنة. قال سيد القوم بلهجة آمرة صارمة تلك زوجتي الغالية وتلك ابنتي خديجتو. ستتعامل معهما في حدود حينما أغيب عن المنزل. أما في حضوري فستتعامل معي مباشرة. لم يرد عليه حميد بل اكتفى بتحريك رأسه علامة الموافقة. ثم طلب سيد القوم من زوجه وابنته العودة للخيمة الأخرى التي يقطنونها. وطلب من حميد أن يتبعه. على بعد عشرات الأمتار تنتشر خيام أخرى لأبناء عمومة سيد القوم. قاده إلى هناك ليعرفه على ذوي قرابته، وليتعرفوا عليه. وجد سيد القوم أخاه وابنه أمام الخيمة فحياهما وردا التحية بكثير من السرور. عَرَّفَ أخاه على الخادم الجديد فتفحصه بأعين ثاقبة أما الابن فلم يكن بحاجة ليتعرف على حميد لأنه هو الذي أودى به لهذه الفيافي في الأصل. وضع الأخ يده على خاصرة سيد القوم وهو يقوده لداخل الخيمة، بينما صرخ الغيث مناديا خادمه جلال الذي ظهر بسرعة البرق، وهو شاب يقارب سن الأربعين قوي البنية. يميل إلى السمرة. يشق على من ينظر إليه أن يقدر من أي طينة هو، ملامحه جامدة لا تشي بأي شيء، وطلب منه مرافقة حميد إلى خيمته. دعا جلال حميد وأشار له بأن يتبعه. بلغا الخيمة. طلب جلال من حميد الجلوس. ومد إليه كأس شاي بارد.

- **من أي بلاد أنت ؟.**
- **من الأطلس.**
- **ومن أحضرك إلى هنا ؟**

- أحضرني الرجل الذي نداك.
- اسمه الغيث. وهو ابن أخ سيدك. ستتعرف عليه أكثر كلما طال بك المقام هنا، لقد اختطفك أليس كذلك ؟.
- نعم. خدعني.
- لا بأس. حاول أن لا تفكر فيما مضى وحاول التأقلم هذا هو السبيل الوحيد للتعايش مع الوضع.

رفعت الكلفة بين جلال وحميد فخاضا في أحاديث مختلفة لأن أشياء كثيرة وجداها تربط بينهما. قطع عليهما حديثهما نداءات بصوت الغيث المتحشرج، قال جلال لحميد وهو يستعجل القيام من موضعه :

- قم والتحق بسيدك، ستجمع بيننا أحاديث كثيرة. سنلتقي غدا لأننا سنرعى الإبل معا. سترافقني لمدة حتى تألف العمل وتألف هذه الصحراء.

خرجا من الخيمة، وأشار سيد القوم لحميد بأن يتقدمه. الغيث يبدو مزهوا ويحاول أن يشعر عمه بأهمية الخدمة التي قدمها إليه، وكأنه يحاول أن يفهمه أنه رهن إشارته في كل ما يحتاجه، وأنه الابن الذي لم يرزق به. لكن سيد القوم لم يكن يوما مرتاحا لابن أخيه ولا اطمئن لطباعه، لذلك تراه يتصنع الود معه فحسب.

في الغد غط حميد في نوم عميق، كان قد عزم على الاستيقاظ فجرا لكن النوم غلبه، أيقظه جلال، قام متاقلا، ورافقه في رحلة الرعي التي علمته الكثير من الأشياء. إضافة إلى ما كان جلال يعلمه إياه أيضا....

كانت الغالية هي التي تزود حميد بالطعام دائما في غياب زوجها. ولم تكن تتوجه لخيمة حميد رغم أنه في عمر ابنها إلا وهي مختمرة لا تكشف عن وجهها. ومع مرور الوقت اطمأنت الأسرة لحميد لما شهدوه من دماثة أخلاقه وحسن سلوكه وعفته. فصارت خديجتو أحيانا تأتيه بطعامه. تقف بالباب فتناديه. يخرج فيتسلم منها طعامه ثم يعود لداخل الخيمة دون أن يرفع بصره إليها. أحس حميد مع مرور الوقت أن طباعه بدأت تتغير، وأن أحاسيس تولد بداخله اتجاه خديجتو لكنه حاول تجاهلها. تجاهل باء بالفشل، فلا أحد استطاع يوما أن يتنكر لأحاسيسه، أو أن يتبرأ منها ولو بذل في ذلك جهدا كثيرا.

بعد أن اعتاد حميد أن يتسلم من خديجتو طعامه دون أن يرفع نظره إليها، ولا أن ينبس ببنت شفة. صار يسترق إليها النظرات. ثم تمردت عليه شفتاه فأضحت تشكر خديجتو كلما أسدت إليه صنيعا، بل قد تمادت شفتاه في التمرد وطفقت تبتسم لخديجتو كلما التقت أعينهما. نشط خياله بعد هذا التمرد، ولم يعد يشغله سوى خديجتو، خصوصا بعد أن استشعر تجاوب نظراته مع نظراتها، لكنه أحيانا في خلواته كان يحاول إقناع عقله أن النفس أمارة بالسوء فكان يستعيذ بالله، ويدفع عنه خيالاته دفعا عنيفا تارة ولينا تارة أخرى. لكن استسلاما كبيرا كان بانتظاره. ذات يوم أتته خديجتو بطعامه، وقفت كعادتها ونادته بصوتها الذي يستعذبه ويؤثره على كل الأصوات، خرج عندها مبتسما كعادته تلك الأيام، و في اللحظة التي أراد أن يتسلم طعامه انسدل خمارها وكأنه تواطأ مع حميد ضدها، فانكشف وجهها. بقيت آنية الطعام بينهما معلقة في الهواء تمسكها يدي خديجتو الحائرة بين تسوية خمارها، وبين إفلات قدر الطعام. حميد يتعمد التماطل في تسلم طعامه، أو لعله فقد الشعور بما حوله

وهو يتأمل خديجتو التي تصورها دائما في ألاف الهيئات، قال مسحورا دون أن يفكر في أي عاقبة أو يخشاها :

ما أجملك ؟ ما رأيت قط أجمل منك.

احمرت وجنتا خديجتو فوضعت القدر أرضا وركضت مبتعدة. هل كانت خديجتو جميلة، وما رأى حميد أجمل منها قط؟ كلا، لم تكن خديجتو بكل ذلك الجمال، بل كانت فتاة مقبولة، متوسطة الحسن، جسمها ممتلئ وفي وجنتيها بعض الامتلاء، أما أنفها فليس بتلك الدقة المنشودة، إلا أن في عينيها حور يشفع لها في كل شيء..، لكن حكم حميد كان صائبا بالنظر إلى وضعه، فهو منذ أشهر كثيرة اقتصرت رؤيته على النوق، وبعض الرجال، وعلى منابت الشيح والعرعار، ومنذ أن جاء هنا لم ينظر في عيني امرأة بشكل مباشر، وليس من الغريب في شيء أن يرى في خديجتو أجمل النساء، لأن الشيء الوحيد الجميل الذي أبصرته مقلتاه في هذه الصحراء هو خديجتو التي اعتاد ان يراها مبرقعة، وهل في الصحراء والفيافي ما هو أجمل من المرأة !

أثر عظيم أحدثته كلمات حميد في خديجتو، فأنفقت ليالي طويلة تفكر في كلامه، حاولت أن تقنع نفسها أن حميد أتى أمرا نكرا وتجاوز حدوده، لكنها ما تلبث أن تستحضر نظرته النفادة إلى الأعماق، والصدق الذي استشعرته في كلامه، تطمئن لكلامه ساعة وتعود لتكذبه ساعة أخرى رافضة فكرة أنها أجمل النساء كما قال لها عاشقها المزعوم، لكنها في كل الليالي كانت تنتهي إلى التسليم والإيمان بحميد وبحديثه ووجنتيها تحمران خجلا.

منذ أيام لم تقترب من خيمة حميد، صارت والدتها هي من يمده بطعامه، رأها غير ما مرة فلم يلتفت نحوها، وإن كانت هي تنتظر أن يفعل

تفرغت خديجتو للقراءة بعدما انشغل زوجها بشؤون الحياة. المشاريع الصغيرة التي ابتدأها تأخذ منه كل وقته. حتى أن خديجتو شعرت بالسأم من الوضع وسولت لها نفسها أن حميد يؤثر تجارته على زوجه. لكنها تعود لتحكم العقل فتلتمس له الأعذار وتتفهم طموحه. وفوق كل شيء حميد لا يترك لها فرصة لتتذمر من أي شيء. بل هو على استعداد دائم لينفذ جميع طلباتها. فرغباتها أوامر كما يقول لها دائما.

تسجلت خديجتو في الجامعة لتحقق أحلامها القديمة. والدتها وحميد استحسنا رغبتها وشجعاها على المضي قدما. اندثر ما كانت تشعر به من فراغ بين الحين والحين. فهي في الجامعة تتلقى المحاضرات من الاثنين حتى الخميس، أما الجمعة فتتفرغ لإعداد الغذاء وللصلاة، أما السبت فتذهب لصالون الرياضة، فقد صارت شديدة العناية بمظهرها وتصر إصرارا شديدا على أن تنحت لنفسها قواما ممشوقا. أما الأحد فتخصصه للزينة في صالون التجميل لتخرج للعشاء رفقة زوجها حميد. إن امرأة تتردد على صالة الرياضة وعلى صالون التجميل لابد لها أن تكتسب بعض الصديقات ممن يترددن على هذه الأمكنة. وبالفعل تعرفت خديجتو على فتاة تقاربها في العمر أثناء ترددها على صالة الرياضة. فتاة جميلة المحيا هادئة ناعمة، شعرها أسود طويل مرسل منساب صففته واعتنت به الطبيعة، أما ثغرها فلا يصفه حق الوصف إلا قول الشاعر :

ثغر كمثل الأقحوان منور

نقي الثنايا أشنب غير أثعل..

أما الأنف ففيه بعض الارتفاع وضيق في المنخرين مع استقامة فيه كاستقامة السيف. كانت جميلة في عيني خديجتو وفي أعين كل من يتأملها. اتصلت الأسباب بين خديجتو وبين هبة، هذا هو اسم الغادة الجميلة التي صارت صديقة لخديجتو.

ذات يوم أحد اتصلت هبة بخديجتو تطمئن عليها بعد تغيبها عن حصة الرياضة، أخبرتها خديجتو أنها في الطريق، انتهت حصة الرياضة واتفقتا على اللقاء في صالون التجميل يوم غد، بلغت هبة الصالون الذي تدخله لأول مرة، حيت النسوة اللواتي يتجملن ثم جلست تنتظر دورها، وهي تنظر في ساعتها، بعد وقت وجيز دخلت خديجتو فنظرت إلى هبة نظرة تشي بالاعتذار، ثم حَيّت صاحبة الصالون التي استبشرت بقدوم خديجتو استبشارها بكل زبائنها الدائمين، جلست خديجتو بجانب هبة في مقاعد الانتظار معتذرة عن تأخرها بالكلمات بعد أن اعتذرت بلغة الجسد، قالت هبة :

-ظننتك لن تأتي ؟

-أستطيع أن أفوت كل شيء إلا التجمل اليوم.

تساءلت هبة بمكر أنثوي :

-وما المميز اليوم ؟

-إنه يوم خروجي مع زوجي، فنحن نتناول العشاء معا كل مساء أحد خارج البيت، وأحب أن أتجمل أيام الآحاد لهذه المناسبة تجملا خاصا.

-يسرني أن تتناولا العشاء عندي. فأنا أملك مطعما. سأحجز لكما أفضل طاولة لدي.

-هذا من لطفك عزيزتي. تسرنا زيارتك. وستكون تلك فرصة لتتعرفي على زوجي.

- احذري أن أغريه، وأختطفه منك.

- لا عليك. إنه الوحيد الذي أثق به. قالتها وهي واثقة من نفسها كل الوثوق.

في المساء اقترحت خديجتو على حميد أن يتناولا العشاء في مطعم صديقتها. وافق. تأنقا وخرجا مسرورين. بلغا مطعم هبة وجداها خلف الصراف. خرجت وقبلت خديجتو على وجنتيها ثم صافحت حميد. رحبت بهما وطلبت منهما اختيار الطاولة التي تروقهما ثم أوصت النادل بهما خيرا. ما إن جلسا لاحظت خديجتو بعض التوتر باديا على آديم زوجها، فسألته :

-ما بك. ألا يعجبك المكان؟

-لا يا عزيزتي. كل الأمكنة التي أجتمع بك فيها تكون عزيزة علي لأني أراها بعينيك.

-إذن ما بك.

-مشاكل العمل فقط يا عزيزتي.

-غيِّبْ أمور العمل ونحن معا، إن عملك يأخذ منك الكثير.

-أنا مسؤول يا عزيزتي.

مررت كفها على خذه ولولا أنهما في مكان عام، لقبلته بحرارة، تحب فيه شعوره المضاعف بالمسؤولية، ثم قالت وهي تمسك بيده :

-ما الذي يشغل بالك يا عزيزي ؟

- البنايات التي استثمرنا فيها هذه الأيام، بلغني أن هناك من يختلس مواد البناء. وإذا استمر الأمر كذلك ستحدث كارثة بعد تسلم أصحاب الشقق شققهم

لا قدر الله. وأنا لست مستعدا لحساب الآخرة والدنيا وحساب الضمير إذا أزهقت أرواح بريئة.

أعادت تمرير كفها الرقيقة على وجهه وقالت :

-أحبك يا حميد. أحب فيك صدقك في عملك، وفي حياتك، وصدقك في الحب..

سحب كفها من فوق خده وقبلها قبلة حارة. رن هاتفه تجاهله، ثم آذنت له زوجه بابتسامة. نظر إليها يتأكد من ابتسامتها التي تعبر عن الرضى. فقالت:

- أجب يا عزيزي. أعلم أنك تخصص هذا الوقت لنا. لكن لابأس.

حمل هاتفه وأجاب، أخبروه أن المختلسين قد ضبطوا متلبسين، ولابد من حضوره ليتقرر تقديمهم للأمن من عدمه، نظر إلى زوجته يستقرئ ملامحها. فقالت:

-اذهب عزيزي. الوقت ما يزال مبكرا سأنتظرك لحين العودة.

قبلها بين عينيها وقام مسرعا. ركب سيارته وغادر يسابق الزمن ليعود إلى زوجه. لاحظت هبة خروج حميد المتعجل وبقاء خديجتو. فانتابها الفضول وأشفقت على صديقتها لأنها ظنت أن شنآنا حدث بينها وبين زوجها، فكثيرا ما شهدت مثل تلك الأمور في المطعم، توجهت إليها تطمئن عليها. لكنها ألفت خديجتو منتشية غارقة في تأملات الحب، وسرعان ما غرقتا في حديث نسائي طويل انتهى بإعجاب خديجتو بالمطعم قائلة، مطعم جميل.

-نعم. إنه كل ما تبقى من والدي. لقد تعرضا لحادثة سير، وقضيا نحبهما فيها.

-رحمهما الله أعرف شعورك عزيزتي هبة لقد خبرت اليتم كذلك. توفي أبي منذ وقت قريب ولولا حميد لضعت في مأدبة اللئام.

أخرجت خديجتو هاتفها وأرت صورة والدها لهبة قائلة :

-هذا أبي سيد القوم.

قالت هبة معلقة على الصورة.

-أسكنه الله فسيح جنانه. تشبهينه كثيرا. انظري إلى هناك. تلك صورة أبي مصطفى وأمي حليمة.

-جميل يبدو أنهما كان يحبان بعضهما كثيرا. رحمة الله عليهما.

شردت خديجتو لبعض الوقت، وكأنها تحاول أن تتذكر شيئا، فقالت هبة : فلننسى كل هذا وأخبريني عن أوقاتك بالجامعة، هل تعلمين أني كثيرا ما وددت لو تخصصت في الأدب؟ كانت والدتي رغم ثقافتها المحدودة تحفظ بعض الأبيات من الشعر، وبعض المقولات في الأدب.

تنبهت خديجتو لسؤالها ثم قالت:

-يذكرني هذا بمخطوط رواية قرأته منذ شهور يتحدث عن رجل اسمه جمال. وعن زوجين اسمهما مصطفى وحليمة وطفلتهما الصغيرة هبة. ولولا علمي بأن السرد أحداث متخيلة، خاصة وأن تلك الرواية يحضر فيها جانب الخيال والماورائيات لقلت أن وصف الشخصيتين حليمة ومصطفى ينطبق على والديك. يبدو وكأن الكاتب كان ينظر إلى صورتهما حينما كان يؤلف.

ضحكت هبة ملء فيها، وأنشأت تقول:

-تعلمين أن تخصصي شعبة العلوم، ولم أتشجع يوما على قراءة الأدب. لكني سأقرأ هذه الرواية حتما لو أعرتني إياها وإن كان ذلك صعبا علي. لكن قبل ذلك حديثيني بملخصها علك تشجعيني على قراءتها.

- الرواية تتحدث عن أستاذ اسمه جمال تم طرده من وظيفته بعدما هاجم تلميذا وأبرحه ضربا لأنه اعتدى على زميلة له كان قد أحبها قبل أن تتزوج حبا شديدا. عندما ألفى نفسه عاطلا عن العمل تعرف على امرأة اسمها حليمة في وسائل التواصل الاجتماعي، ولأن ظروفهما كانت مريرة قررا أن يسافرا ويهربا لعلها يجدان عوضا عما فارقاه، سافرا إلى مدينة أكادير، واستقرا هناك. إذ عمل الأستاذ المطرود في الحقول وذاق ويلاتها، ثم اشتغل بعدها فقيها وصار من العباد الناسكين بعدما كان ممن يواقعون عُسيلات الحياة دون تحرج، ولا محاسبة للنفس، لكن امرأته حليمة ستصادق إحدى النساء، وسيتضح أنها تعرف جمال حق المعرفة، بعدما رأت صورته، خشية أن يعثر عليه أهله قرر التضحية من أجل حبه لحليمة التي تزوجها زواجا عرفيا، ففكر في اختطاف ابنتها هبة من زوجها السابق مصطفى. وقد سجن إثر محاولته ذلك، وفي السجن تبدلت أحواله وطرأت على حياته الكثير من الأمور، فقد ضاق به المكان، وتاقت روحه للتحرر فاضطر لاستحضار جني اسمه حسن مستعينا بما قرأه في الكتب الصفر ليساعده على الاتصال بالعالم الخارجي، تحقق له ذلك، لكن هذا الجني عكف على تعذيبه كل صبح بعدما نقض العهد المبرم بينهما، وبعد خروجه من السجن أعاد حليمة إلى زوجها مصطفى بعدما هيأ كل الظروف لذلك. ثم عاد لنقطة

الانطلاق، عاد ليحيي حبه القديم، وارتبط بزميلته الأستاذة التي تطلقت وبحثت عنه في كل مكان حتى وجدته.

- سأقرأها يبدو وكأن الكاتب كان يعرفنا حقا. لكن والدي لم يفترقا يوما. ولا أتذكر أن أحدهم حاول خطفي، ثم ضحكت ضحكة جميلة تسر الناظرين.

دخل حميد المطعم أبصرته هبة قادما فقامت لتنصرف موصية خديجتو:

- لا تنسي الرواية في لقائنا القادم.

جلس حميد في مقعده وملامح الغضب لم تفارق وجهه بعد. حاولت خديجتو أن تخفف عنه فأمسكت بيديه وضغطت عليهما، ثم نادت النادل أن آتنا عشاءنا، فقد لقي زوجها من خروجه غضبا ونصبا.

- ما الأخبار يا حميد.

-لقد تم ضبط أولئك العمال من قبل الرجال الذين كلفتهم بالتيقظ والحراسة.

-وهل قدمتهم للشرطة.

- لا.

-ولما. إن يكونوا سرقوا الآن، يعلم الله كم سرقوا من قبل.

-استعطفوني يا عزيزتي، وعندما تحريت عنهم ألفيت أولادهم زغب الحواصل وأن بهم خصاصة.

-لكن هذا لا يبرر فعلتهم.

-صحيح يا عزيزتي. لكني قررت العفو عنهم وصرفهم من العمل. زجهم في السجن سيزيد عائلاتهم قهرا. وأنا أعطيهم فرصة للتوبة في مكان أخر.

-أنت أدرى عزيزي.

- فلتناول عشاءنا وإني أعتذر على هذا الحادث غير المتوقع ثم قبل يدها. فأخذت يده وقبلتها أيضا.

التقت خديجتو بهبة في صالون الحلاقة. تزينتا ثم قالت هبة لخديجتو:

- **إن لم تشعرا بالسأم يمكنكما تكرار العشاء في مطعمي هذا الأسبوع، سأسعد باستضافتكما.**

- **بشرط يا هبة سنؤدي ثمن الوجبة كاملا دون خصم.**

ابتسمت هبة ووافقت على الشرط، ثم قالت خديجتو

- **سنأتي إن شاء الله.**

قبل أن تفترقا تذكرت خديجتو مخطوط الرواية أخرجتها من حقيبتها. وأعطتها لهبة قائلة:

- **الرواية التي وعدتك بها وخذي بالك مع النهاية. فهي نهاية مفتوحة. ولك أنت باعتبارك قارئة حرية الحكم. هل كان جمال مريضا نفسيا أم أنه روحاني يتواصل مع الجن.**

- **هذه مجرد مذكرة وليست رواية.**

- **نعم أنت محقة، سبق لي أن قلت أنها مخطوط فقط، فهي لم تنشر بعد ولا تحمل حتى اسم كاتبها، ذات يوم أحضر حميد هذه المذكرة مع بعض الكتب**

المهترئة، قال أن حارس المباني التي تنشؤها مقاولته قد وجدها في إحدى الشقق التي غادرها عمال البناء، ولعل أحدهم نسيها هناك، وقد أشفق حميد على تلك الكتب وخشي أن يحرقها الحارس للتدفئة ليلا، ولأنه يعلم أني أحب الكتب أحضرها لي، وقد استهواني المكتوب في هذه المذكرة فقرأتها حتى آخرها..

أخذت هبة المذكرة تتصفحها. سأنساك. من هذه التي يود البطل أن ينساها.

- يريد نسيان حليمة.
- وهل نسيها؟
- اقرئي الرواية لتعرفي.
- أنت تشوقينني أكثر لقراءة الرواية. شكرا خديجتو. ثم قبلتها على وجنتها قبلة خفيفة.

ركبت هبة سيارتها وفي الطريق لاحظت أنها تسير بسرعة أكبر مما اعتادت أن تسير به. كانت متشوقة لمطالعة الرواية. بلغت شقتها ارتمت على كرسي في الصالون. أمسكت بالمذكرة تتصفحها. فتحتها. قرأت الإهداء الموجه إلى فاطمة في الصفحة الأولى ثم بيت ابن شهيد الأندلسي عن الفراق في الصفحة الثانية، ثم شرعت في قراءة أول صفحة "قدماه متورمتان. الامتقاع بين على محياه. جسده مسه الكثير من النصب. يركز نظره على الجروح التي في رجليه وقلبه ينتابه الألم. هذه الرحلة التي تتكرر معه كل صبح تجعله يحس أن لا فرق بينه وبين أهل جهنم، فأولئك تبدل جلودهم كلما نضجت بجلود غيرها. وهو يطاف به مكرها في الجبال والقفار حافي القدمين صبح كل يوم دون أن يحدث أن

يتأخر حسن عن موعده أو يغيب، إن قرارات الإنسان هي التي تلقي به إلى جحيم الآخرة أو إلى مثل هذا الجحيم الدنيوي. زوجه مريم مستلقية بجانبه على السرير لا يغمض لها جفن، يؤرقها حاله بعد ما عرفته من أمره هذه الليلة..."

بلغت هبة الصفحة التي يحكي فيها السارد عن لقاء جمال بحليمة. إن أوصاف حليمة مطابقة بالفعل لأوصاف والدتها. ثم قرأت عن سفر جمال وحليمة لضواحي مدينة أكادير حيث تنتشر الحقول، وكذلك عن الظروف التي مرا منها معا، زواجهما، وعمل جمال في الحقول، ثم توليه الإمامة في المسجد. وقرأت اعتراف حليمة الذي يحكي حياتها فبكت تأثرا من هول ما قرأته. وعندما قرأت مقولة لنيتشه ترددت على لسان بطل الرواية صدمت. وتجمد الدم في عروقها. كانت المقولة هي "المجنون هو الذي فقد كل شيء إلا عقله". إنها العبارة نفسها التي سمعتها كثيرا من والدتها. انتابها الذعر. تفحصت المخطوط علها تجد تاريخا ما عليه، فلربما قرأت والدتها الرواية وتأثرت بها، لكن هذه ليست برواية إنها مجرد مذكرة؟ لا يمكن أن تتضمن تاريخا. قررت أن تمضي في القراءة قرأت عن حياة جمال ومآسيه فتعاطفت معه. قرأت عن محاولته خطف هبة ليهنأ قلب حليمة ودخوله السجن لمحاولة الاختطاف وكيف استطاع جمال أن يهيئ الظروف من داخل السجن ليجمع بين حليمة ومصطفى ويعود هو لمريم. قرأت كل شيء حتى بلغت النهاية التي حارت في تفسيرها كما نبهتها إلى ذلك خديجتو. هل جمال مريض نفسي اختلق كل الأحداث. أم أنه عرف الجني حسن فعلا واستحضره. شعرت بشخصية جمال مألوفة كأن بعضا من تصرفاته كانت تصرفات والدتها. اختل توازنها. قامت تبحث في أغراض والديها وهي التي لم تقربها منذ أن قضيا نحبهما لما كانت تشعر به من رهبة. دخلت غرفتهما وكمن يمشي

أثناء نومه. فتحت خزانة الملابس. لم تعثر على شيء ذي بال. اتجهت للخزانة الصغيرة قرب السرير بحثت في كل الأدراج. كانت كلها مفتوحة إلا الدرج الذي في الأسفل. كان مغلقا ولا أثر لمفتاحه. كسرت هبة هذا الدرج بعصبية كبيرة. الخوف يسيطر على كل تصرفاتها تخشى أن يكون كل ما قرأته صحيحا. أخرجت من الدرج ورقة صغيرة مكتوب عليها اسم مريم ورقم هاتفي. تهادت. شعرت بدوار .ولو رآها الإنسان لحسبها شبحا. أخذت بعض الوقت حتى استجمعت قواها، تأملت الورقة وركضت للصالون فأخرجت هاتفها من الحقيبة بيد ترتجف. اتصلت بالرقم. فكان خارج الخدمة. اتصلت برقم آخر.

- **الو. خديجتو. أرجو أن تأتي.**
- **ما الأمر. هل أنت على ما يرام يا هبة.**

علا نحيبها.

- **فلتأتي يا خديجتو، أحتاجك.**

اتصلت خديجتو بحميد تخبره بزيارتها الطارئة لصديقتها. بلغت شقتها. فتحت لها هبة الباب وما إن خطت للداخل حتى عانقتها وهي تبكي. اختلطت الأصباغ وكل زينة الصباح في وجهها، وصار وجهها كلوحة فنان مبتدئ.

- **ماذا حدث يا هبة. بالله عليك خبريني.**

كلما أرادت الإفصاح غلبتها دموعها، أقعدتها خديجتو عانقتها وطفقت تمسح على ظهرها لتهدأ من روعها.

- **ما بك يا هبة. إنها الرواية. كل ما جاء فيها صحيح.**

- حبك لوالديك فقط يا عزيزتي ما صور لك الخيال حقيقة. تلك أحداث سردية لا تطابق الواقع وإن اقتربت منه بمحض الصدفة. هل تؤمنين أيضا بالجني حسن الذي يخدم جمال. قالت جملتها الأخيرة وهي تبتسم لتطمئن هبة. قالت هبة :

- هل تذكرين لقاء جمال وحليمة الأخير في المطعم.

- نعم.

- هل تذكرين الورقة التي دسها جمال في يد حليمة خلسة.

- نعم.

- انظري، إنها الورقة نفسها، وجدتها قد خبأتها والدتي في مكان محكم. اتصلت بك لأني كدت أجن، وفي لحظة ما خشيت أن أكون شخصية من ورق أيضا. شخصية في كتاب.

- لا يا عزيزتي أنت من لحم ودم. لكن أخبريني عن ماضي والديك. أقاربهما، الأصدقاء... ؟

- والدي لا أقارب لهما يا خديجتو. عرفتهما وحيدين دائما. لا يملكان إلا بعضهما ولا يعيشان إلا من أجلي وأجلهما. وحتى الأصدقاء لا أصدقاء لنا سوى عائلة واحدة منذ أن بدأت أعي العالم وأسباب الصداقة متصلة بيننا. إنها أسرة رضى صديق والدي وجيهان أخته صديقة والدتي.

- وضعت خديجتو كفها على شفتيها من هول الصدمة، إن اسم رضى مذكور في تلك المذكرة أيضا، انتاب الذعر هبة أيضا واستغربت من عدم تنبهها

إلى دور عائلة رضى في حياة حليمة، قالت خديجتو وهي تعانق هبة التي استحال لونها أصفرا كأنها رأت عالما من الأشباح.

- فلنزر أسرة رضى، كل الإجابات عن الأسئلة العالقة هناك.
- رضى شخص كثوم علاقتي به مبنية على الاحترام الكبير. لكن أخته جيهان مثل والدتي. سأتوسل الحقيقة عندها. رافقيني إليها يا خديجتو. أخاف أن أنهار وأسقط.

ركبتا السيارة وذهبتا عند جيهان. سبحان الله !. لعبت السنون بجيهان، تقدمت في العمر أكثر مما ينبغي أن تتقدم فيه. أنجبت خمسة أولاد لعلهم من استنفذ جهدها. لكنها ما تزال على التدين الحسن الذي كانت عليه في الشباب. مواظبة على الصلوات، والأذكار راضية بالأقدار مطمئنة لها. لاحظت الحمرة تكسو عيني هبة فهبت تضمها مستفسرة عما أصابها. جيهان كانت ولا تزال أقرب الناس إليها بعد والديها. أخرجت هبة المذكرة وألقتها أمام جيهان. لم تفهم جيهان شيئا مما يحدث. فقالت

- ما بك يا ابنتي.
- ماذا تعرفين عن والدي.
- نكست جيهان رأسها كما ينكس العلم حزنا على فقدان عظيم في الوطن، والتزمت الصمت، وكأنها سُئلت عن معلومات استخباراتية.
- لقد كانا خير الناس. وأكثر من أحبك حبا خالصا.
- أجل أعلم. لكن أخبريني ماذا تعرفين عنهما.
- لا أعرف عنهما أكثر مما تعرفينه يا ابنتي.

- بل تعرفين. أنا واثقة من ذلك، كل شيء عنهما مذكور هنا. كل شيء. وحدثتها بملخص الرواية. ما لا أفهمه فقط هو لما أخفيا ذلك عني. واندفعت في موجة بكاء.

- لا تلومي والديك يا ابنتي. لقد ضحيا من أجلك بكل شيء مثلما ضحى جمال من قبل. فقد اهتديا بعد اجتماعهما أن يقطعا كل الصلات. بعد نقاش طويل، توصلا إلى أن عائلتيهما هما السبب في فراقهما الأول. وخشية أن يفترقا مجددا ويضيعانك قررا النأي بك عن كل علاقاتهما، فقد اشترى مصطفى حصة أخيه في المطعم، ولم يأخذ حليمة يوما لقريته. كان يزور والدته مرة كل سنة ليوم أو يومين ويعود. وكذلك والدتك نسيت أمها وعجزت عن نسيان إخوتها. لكنها كانت عاجزة، كان الاتصال بالإخوة سيفضي مباشرة إلى الاتصال بالأم. وحليمة خافت أن تتذمر حياتها الجديدة التي بذلت فيها التضحيات. نسيت من تكون مضطرة، وكذلك فعل مصطفى تفرغا لحب بعضهما ولرعايتك. ناقشتهما في الأمر، وأنه ليس من الصواب أن ينهجا ذلك النهج. وأن قطع صلة الأرحام أمر مذموم، لكنهما كانا مقتنعين بفكرتهما. لقد أحبك والديك يا ابنتي أكثر مما قد تتصورين.

مشهد عصيب. هبة تتناطح الأفكار في رأسها لا تدري بما تجيب. نظرت جيهان إلى صديقة هبة وكأنها تنبهت لوجودها للتو، ودت لو تسألها من تكون، لكنها لم تقدر. أحست خديجتو بالسؤال الذي يدور في عقل جيهان وتعجز شفتاها عن النطق به تفاديا للإحراج فقالت.

- أنا صديقة هبة.

- لم تحدثني هبة عنك من قبل.

- تعارفنا حديثا.
- أهلا وسهلا يا ابنتي، اعذرنني لدقائق.

غابت جيهان لتعود بعد برهة وهي تحمل كؤوس القهوة. هبة مصدومة لا تدري بأي أرض هي. كانت صورة والديها شفافة مستقرة كصفحة الماء ثم ألقت هذه الرواية الروع في هذه الصفحة فاهتزت. ناولتها جيهان قدح القهوة. اعتذرت وقامت لتخرج، حاولت جيهان استبقاءها لكن هبة أصرت على الرحيل. خرجت وخديجتو تمسح على ظهرها.. ركبتا السيارة ودت خديجتو لو تخفف بعضا من آلام هبة وصدمتها، لكنها لا تعرف كيف ؟. فهي لم تفهم بعد كيف حدث كل هذا. ولا تدري أهي مذنبة بتقديمها الرواية لهبة أم أنها أسدتها معروفا. لكن الكفة الأولى كانت أرجح. ربما لم يكن قلب هبة لينكسر لو لم تخبرها عن الرواية أو تعطيها إياها.

- هبة. أنا أسفة.
- على ماذا تأسفين.
- أنا السبب فيما صرت إليه.
- بل إني أشكرك. كشفت جانبا خفيا من تاريخي العائلي. لست وحيدة كما توهمت يا خديجتو. هناك أقارب لي. تخيلي بؤس شعور الإنسان أنه وحيد في هذا العالم. لا تلومي نفسك في شيء.. سأوصلك للمنزل. لا أريدك أن تفوتي موعدك مع زوجك.
- يمكنني البقاء معك وإلغاء الموعد يا هبة.
- لا يا عزيزتي. الموعد أولا، ما ذنب زوجك إن كنت أنا تعيسة. زوريني في أي وقت بدءا من الغد. سأكون سعيدة برفقتك. أحتاج أحدا بجانبي.

في الغد أصابت الحمى ابنة خديجتو. وأنساها انشغالها بابنتها الاتصال بهبة والاطمئنان عليها. ظنت هبة أن خديجتو تخلت عنها فلم تهاتفها. أمضت يوم الاثنين مكتئبة في شقتها لم تغادرها قط. وفي يوم الثلاثاء تحسنت حال ابنة خديجتو وتذكرت هبة، هاتفتها ولم يكن هاتفها في الخدمة. خافت أن يكون مكروها ما قد أصابها، أو أصابت نفسها به، فانتقلت إلى شقتها. دقت جرس الباب وفتحت هبة. كانت في حال سيئة وكأنها حزنت لأربعة وعشرين عاما. كل ساعة بعام. دلفت خديجتو للداخل، وطفقت ترفه عن هبة لعلها تنعم ببعض السلام الداخلي. قالت هبة دون مناسبة.

- سأبحث عن جمال.

استغربت خديجتو من رغبتها استغرابا شديدا ثم قالت في ذهول :

- هل ستبحثين عن شخصية من ورق؟
- ليس شخصية من ورق. بل له وجود. لا ريب أنه في مكان ما. سأذهب لبني ملال وأبحث عن مريم إن وجدتها فسأجد جمال.

لكن المعلومات التي تمتلكينها عنهما لا تكفي. البحث عنهما كالبحث عن إبرة في كومة قش.

-مادام أنه هناك إبرة فهناك فرصة للعثور عليها، ولو كانت في كومة قش.

-انتظري يا هبة لدي فكرة أخرى. أتذكرين محمد حارس السجن إنه هنا بسجن البيضاء، ويعرف جمال ومريم. وهو السبب في اجتماعهما.

-نعم لقد غاب عني ذلك. حارس السجن محمد هو المفتاح. شكرا خديجتو. كيف غاب عني ذلك. سأسأل عنه منذ الغد.

عاد شبح ابتسامة قاتمة لآديم هبة. لكن تلك الابتسامة خير من لا شيء، وقد شجعت خديجتو على أن تطلب منها بلهجة حادة أن تقوم للاستحمام والخروج معها لتزجية بعض الوقت في الخارج، استجابت لها هبة فقد كانت بأمس الحاجة لبعض الرفقة والترفيه.

سرحت خديجتو شعرها وارتمت بجانب حميد فوق السرير وهي تداعب خصلات شعره مبتسمة. سألها حميد:

-ما سر هذه الابتسامة.

-سأحدثك بشيء عجيب لم تسمعه من قبل، ولا أخالك تصدق الحكاية.

-جربي

-هل تؤمن بالمصادفة أم بالقدر.

-لا وجود لشيء اسمه المصادفة يا عزيزتي، هناك قدر فحسب.

-إذن اسمع، هل تعرف صديقتي هبة التي تناولنا العشاء في مطعمها،

-نعم، أعرفها

حكت خديجتو القصة بأكملها لحميد. استغرب كثيرا مما سمعه ولو لم تكن خديجتو هي راوية الخبر لما صدق ذلك.

زارت هبة سجن البيضاء تسأل عن الحارس محمد زميل جمال في الجامعة، فأخبروها بعد لأي أنه انتقل، وامتنعوا عن إخبارها بالوجهة لأن قوانين الإدارة لا تسمح بذلك، عادت مكتئبة، وكأن شعاع الأمل الذي كانت تملكه انطفأ. حدثت خديجتو بذلك في الهاتف. بعد برهة ساد الصمت فيها بينهما قالت:

-خديجتو، أمامنا فرصة أخرى، سأطلب من حميد أن يسأل عن وجهة انتقال الحارس، لديه معارف قد يفيدونه، خصوصا في السجن فقد سبق أن قامت مقاولته ببعض المشاريع داخل المؤسسة.

كان حميد عند حسن ظن خديجتو، فقد تمكن من معرفة الوجهة التي انتقل إليها الحارس محمد. كان قد انتقل إلى المؤسسة السجنية بمدينة وادي زم. قررت هبة أن تزوره لعله يساعدها في العثور على ضالتها. استأذنت خديجتو زوجها في مرافقة هبة. تحفظ ولم يدلي بأي رأي، علمت خديجتو بذكائها أنه غير راض عن هذا السفر.

-حميد إن لم تكن مرتاحا لذهابي، فرافقنا.

-أنا مشغول يا عزيزتي.

-نحن جزء من هذه القصة يا عزيزي. القدر اختارنا لنكون منها. ألم تقل لي ذات يوم أنه لا وجود للمصادفات بل هناك قدر فحسب.

-نعم، بذلك آمنت وما أزال.

-إذن رافقنا يا عزيزي. هبة وحيدة وهي في حاجة إلينا، إن أقسى الأوقات التي تمر بمن يعيش وحيدا هي الأوقات التي يواجه فيها الخطوب فلا يجد أحدا بجانبه. حينها يتضاعف في قلبه الألم.

-حسنا نزولا عند رغبتك عزيزتي. سنذهب.

حملت خديجتو هاتفها واتصلت بهبة تبشرها بأن حميد سيرافقهما. أحست هبة بلون من السرور الخفي، وكأن بعض سحب الوحدة انقشعت من حياتها. اتفقتا بأن ترحلا رفقة حميد إلى وادي زم في الغد .

بلغا باب المؤسسة السجنية، طوابير من الناس تنتظر لزيارة النزلاء. الحراس في انشغال عمن حولهم، هذه الزيارات تضغط على أعصابهم فتصيبهم ببعض العدوانية. توجه حميد نحو أحد الحراس، وسأله عن محمد أخبره أن مناوبته بالداخل، ولن يخرج قبل الرابعة، طلب رقم هاتفه فأبى الحارس أن يمده به. ثم عاد عند المرأتين فحدثهما بما حدث. ينبغي أن ينتظرا حتى الرابعة، قالت خديجتو :

-الوقت ما يزال مبكرا. فلنتعرف على المدينة.

طلبت هبة منهما أن ينتظراها لدقيقة توجهت نحو حارس البوابة دار بينهما حديث قصير، دونت رقم محمد في هاتفها، واستدارت لتعود وابتسامة الظفر على شفتيها. قالت خديجتو لحميد:

-يبدو أنها حصلت على رقم الهاتف الذي عجزت عن تحصيله.

قال حميد متهكما:

-ومن يرفض طلب امرأة جميلة مثلها.

وجهت له خديجتو ضربة لصدره فلم يصدها. عرف زلته فقال:

-أنت أجمل النساء. ولا امرأة تملك مثل عينيك.

رضيت خديجتو فهدأت. استقلوا السيارة فاتصلت هبة بمحمد. اتفقت معه على اللقاء مع الرابعة وانطلقوا يتعرفون على المدينة. بعد لقائهم بمحمد مساء أخبرهم أنه لا يعلم شيئا عن جمال، لكنه يستطيع إرشادهم للحي الذي تسكنه مريم. فإن عثروا على مريم فسيعثرون على جمال. كتب لهم العنوان وودعهم.

حميد متعجل للعودة للبيضاء، وهبة تنازعها نفسها لتكمل البحث. نظرت خديجتو إلى حميد في خفاء عن أعين هبة تستعطفه مرافقتهما، فلان قلبه لها ووافق. قالت خديجتو لتكسر لحظة الصمت السائدة:

-بني ملال قريبة من هنا أليس كذلك.

قال حميد :

-نعم، ساعة ونصف على أبعد تقدير بالسيارة.

أمسكت خديجتو بيد هبة والحماس يعتريها.

-لنذهب ونعثر على جمال.

بلغوا مدينة بني ملال وسألوا عن الحي الذي تقطنه مريم، بلغوه وطفقوا يسألون عن المنزل الذي تقطنه أستاذة اسمها مريم. بعد لأي أرشدهم صاحب محل للمواد الغذائية للمنزل، دقوا جرس الباب. فخرجت إليهم امرأة ناضجة، حدست خديجتو وهبة أنها مريم. فأوصاف مريم في رواية سأنساك تنطبق على هذه المرأة. قالت هبة.

-مريم؟

-نعم، هل أستطيع مساعدتكم؟

-ذلك ما أرجوه، لكن اسمحي لي أولا أن أقدم لك نفسي. اسمي هبة. وهذه صديقتي خديجتو وزوجها حميد.

-تشرفت بمعرفتكم.

جئنا بحثا عنك بعدما أرشدنا محمد حارس السجن إليك. هنا امتقع لون مريم، وضاق صدرها. أحست أن في الأمر ما يريب. لكن أخلاقها لم تسمح لها بإبقائهم في عتبة الباب، فتحت الباب على مصراعيه ثم قالت:

تفضلوا.

دخلت هبة وخديجتو أما حميد فاعتذر، واستأذن زوجه بالانتظار في السيارة. مريم تنهشها الأسئلة المؤرقة. ماذا يريد هؤلاء الناس؟ ولما أرسلهم محمد إليها، وهي التي لم تتواصل معه منذ زمن. لاحظت هبة ما بها من شرود وتفكير فقالت:

-أعتذر عن المجيء في هذا الوقت. لكني كنت مضطرة لذلك. لقد سبق أن التقينا لكني كنت آنذاك طفلة صغيرة. أنا هبة ابنة حليمة. ارتفعا حاجباي مريم من الدهشة. لم تتوقع أن تكون الشابة الجميلة التي أمامها هي هبة تلك المخلوقة الصغيرة التي تسببت في الأحداث الجسام.

-لقد كبرت ما شاء الله يا هبة. أتذكر لقائي بك في مطعم والدك كنت صغيرة جدا. بالمناسبة كيف حال والدك.

سألت مريم عن مصطفى، ولم تسأل عن حليمة. هي ومصطفى كان وضعهما متشابهين. فقدا حبهما في لحظة ما، وعندما استرداه، استرداه ناقصا، ردت هبة على سؤالها:

-لقد قضى هو ووالدتي في حادثة سير.

-الله أكبر. تغمدهما الله برحمته.

شعرت مريم بالندم، عاشت حاقدة على حليمة حتى اليوم. حقدت عليها حتى بعد مماتها دون أن تعلم، ربما آن الآوان لتتخلص من هذا الحقد. ساد صمت عميق بين الجميع، قالت مريم:

-اسفة ماذا تشربن.

قالت هبة :

-لا شيء. جئت أبحث عن جمال.
-جمال في مستشفى الأمراض العقلية والنفسية، لم يعد يقطن معي.
-لكن ما الذي حدث؟ ألم تكونا معا سعيدين.

بلى لقد حصَّلنا بعض السعادة في بداية زواجنا. لكن تصرفات جمال كانت تبعث على الريبة والشك. يستيقظ دائما متعبا وتؤلمه رجلاه وكلما سألته عن الأمر تهرب من الجواب. رفض أن يعمل، وكان يمضي اليوم بأكمله داخل المنزل. وبعدما يئست منه اتصلت بمحمد الحارس في السجن فأخبرني أن جمال كان يعاني من مشكلات نفسية بالسجن، وكان يتعاطى الدواء. أجبرته على زيارة طبيب نفسي. وكنت أتأكد كل ليلة من تعاطيه الدواء كما كان يحرص معي أيضا على تعاطي حبوب منع الحمل لأنه لطالما آمن أن مجنونا مثله غير قادر على تربية طفل. لكن الأيام جعلت ما بيننا من حب متقد يخمد شيئا فشيئا. كنت أشحن همته حينا ليبحث عن عمل يعينه على قتل الفراغ فيتبرم من حديثي، وينأى عنه، وأحيانا كانت الغيرة تدفعني إلى اتهامه بأنه ما يزال أسير حب والدتك. فكان يلتزم الصمت ولا يجيب. وذات يوم عدت للمنزل فلم أجده، غاب لأيام ثم عاد، تظاهر كأن شيئا لم يكن. حاولت مناقشته في الأمر فأبى، بعدها تكررت حوادث اختفائه. وذات يوم كنت أعد وجبة الغذاء في

المطبخ. لم أشعر بمجيئه. عانقني من الخلف. ثم وضع كفه على النار الموقدة. صرخت بأعلى صوتي وارتعبت. احترقت كفه وتضررت ضررا بليغا. أخذته للمستشفى. هناك حدثت الطبيب عن سببِ احتراق كفه، فأوصى بأن يعرض على طبيب اختصاصي في المشكلات النفسية. عرض عليه وأوصى هو أيضا أن يتم الاحتفاظ به في جناح الأمراض النفسية لكي لا يؤذي نفسه أو الأخرين، كدت أجن من هول الصدمة وددت الصراخ بأعلى صوتي في وجه الطبيب لأخبره أن جمال لا يمكنه أن يؤدي مخلوقا تدب فيه الحياة، لكن فيما كان سينفع صراخي أمام تشخيص المعالج، كان ليذهب أدراج الرياح.

أمضى خمسة عشر يوم يوما من التطبيب ثم سمحوا له بالمغادرة. كان أكثر هدوء صرت أعامله بلطف كبير خشية أن يقدم على أذية نفسه عملا بنصيحة فؤادي قبل نصيحة الطبيب. بعد أيام ضاقت نفسه بالمنزل وكلما خرجنا معا صام عن الكلام صوم زكرياء. فلا يجيب إن سألته، ولا يبدي رأيا في أي مسألة أعرضها عليه. وذات ليلة استيقظ من النوم قبل الفجر بقليل. فشعرت به، تظاهرت بالنوم خرج من غرفة النوم وعاد بعد قليل يحمل حبلا فتله بإتقان وعلقه في المروحة ليشنق به نفسه. قمت فزعة من فراشي، وأسقطته من فوق الكرسي قبل أن يلف الحبل حول عنقه. ارتميت فوقه وبكيت. بكيت بشدة كما لم أبكِ من قبل. شعرت أني إنسانة حمقاء غير قادرة على الحب ولا الحياة. وفي سري كنت دائما ما أجلد نفسي وأحملها الذنب. لو لم أتخلى عنه في البدء لما حصل كل هذا. كانت عبراتي تسقط على وجنتيه. لم يتجاوب. بقيت فوقه أنتحب حتى استسلمت للنوم. استيقظت بعد ساعة إذا به ما يزال شاخصا ببصره في السقف. لم يتحرك خشية أن يوقظني. استحممنا وأفطرنا معا. لم أشأ أن أترك له أي فرصة ليبقى وحده. أخذته عند الطبيب. أدخله مجددا الجناح ليتعالج. ومن يومها

لم يعد. وجد عالما جديدا هناك. طلب مني ذات يوم أن أتيه بحاسوبه ليتمكن من كتابة خواطره. اقترحت عليه أن أتيه بالورق لأني أعلم حبه للكتابة على الورق ولقراءة الكتب التي من ورق. قال:

-أفضل الكتابة على الحاسوب لما يتيحه من سهولة في الحذف والتعديل. ضغطة زر واحدة فقط فتتخلص من كل ما كتبته. أما الورقي فتشطب وتعيد الكتابة وليس هناك من حذف. بل إحراق فقط. وأنا لا أحب إشعال النار في الكلمات..

زودته بحاسوبه. زرته كثيرا، استقبلني في بعض الزيارات، وأبى في الأخرى. ذات يوم وصلتني رسالة منه ومازلت أحتفظ بها. انتظري سأتيك بها. قامت مريم وأحضرت الرسالة من خزانتها. أعطتها لهبة فتحتها واستأذنت مريم في قراءتها فأذنت لها.

عزيزتي مريم.

أسوق إليك في بداية حديثي مثلا أوروبيا قديما يعود إلى العام 1174م،

"إننا نعلن حقيقة ثابتة نؤمن بها وهي أنه لا يمكن للحب أن ينشأ بين المتزوجين أو أن تؤثر قوته فيهم، إذ إن العاشقين يهبان بعضهما كل شيء طوعا واختيارا بعيدا عن تأثير كل ضرورة أو قسر، أما الزوجان فهما ملزمان بحكم الواجب أن ينزلا نزولا كليا عند رغبات بعضهما وألا يضن أحدهما بشيء على الآخر"

أحبك لكن لا أستطيع العيش معك.

عزيزتي مريم قد تندهشين من هذه العبارة التي استهليت بها رسالتي، وقد تنكرينها أشد ما يكون الإنكار، لكن كوني على بينة أني لم أكتبها إلا بعد تفكير طويل. فأما أني أحبك فهو شيء قديم وليس بالجديد، وهو أمر لا يحتاج لبرهان أو تأكيد. فكل لحظة جمعتنا معا، لو بعثت لشهدت على حبنا وأقسمت عليه بأغلظ الأيمان. أما مسألة أني لم أعد أستطيع العيش معك فهو شيء طارئ مستجد.. شيء أنكره الحس والشعور قبل العقل، ظننت هذا من نفثات الشيطان فاستعذت بالله من همزاته، ووطنت نفسي على دفع هذه الفكرة دفعا عنيفا عن خاطري قبل أن تحكم سيطرتها علي. لكنها فكرة واجهت دفعي العنيف لها بعنف أكبر، وطفقت تتخذ لها في نفسي حيزا إلى أن صار أمر إنكارها ضربا من الجحود والوهم.

إني أعرف فيما تفكرين وقد بلغت هذه الأسطر بالقراءة. أعرف أنك تظنين قولي هذا اندفاعات من اندفاعاتي المزاجية وأني لابد منكر كل هذه الأشياء غدا أو بعد غد، وأني عائد إليك. صدقي يا عزيزتي أني أرجو مثل رجائك وأكثر، وكم أمني النفس أن أمزق هذه الورقة التي أحملها من المشاعر المتناقضة ما لا تطيق، وأعود إليك أحسن مما غادرتك لهذه المستشفى المليئة بالمجانين. لكن ليس كل ما ترجوه النفس تجدْهُ. لقد طرأ علي شيء جديد في هذا المكان يا مريم، لا أدري هل زاد اعتلال تفكيري، أم أنه اعتل للتو، أم أنه شفي. لا أستطيع تحديد وضعه بالذات. إني أتساءل كل لحظة هل كنت لأتخذ قرار مفارقتك لو كنت ما أزال في كنفك تضمني ذراعيك كل مساء؟ أظن أني كنت لأفعل يا مريم. ليس لأني لم أعد أحبك، بل لأني لم أعد أستطيع العيش معك كما قلت آنفا. ترين أن كلامي ليس منطقيا اليس كذلك؟

كيف لي أن أدعي حبك ثم أدعي في الآن نفسه أني لا أستطيع العيش معك؟. أعرف أنك تؤمنين أن الذي يحب مضطر للعيش مع من يحب، ومدفوع لبذل التضحيات في سبيله. وأنا أشاركك هذا الإيمان. أو قولي أني كنت أشاركك إياه فصبئت .. قولي إن شئت يا مريم إني رجل استنفذ رصيده من التضحيات. رجل استيقظ ذات صباح، وفكر أنه آن الوقت ليعيش كيفما يريد دون قيود. أعرف أن كلمة قيود هذه ستغضبك غضبا شديدا. لأنك مقتنعة أنك لم تضعي في عنقي قيودا ولا أغلالا. لكن ما أشد الفارق بين ما تعتقدينه وبين ما أحسسته أنا. بالنسبة إلي يا مريم كان كل ما تقومين به يحاصرني أكثر. هوسك بالمستقبل عذبني أشد العذاب. حديثك عن وقتنا الضائع في الحياة آلمني، وأيقظ مشاعر الندم التي وأدتها منذ زمن بداخلي. هوسك بالنسل وببناء أسرة وتوفير الضروريات لها والعمل الجاد.. كل هذه الأشياء كانت تزيدني رهقا. كنت أتظاهر فقط بمشاركتك أفكارك وهواجسك ولم أقتنع بها يوما ، بل إني كنت أرجو في كثير من الأحيان أن تتوقفي عن الكلام وأن تقبليني فقط، أن تضعي شفتيك فوق شفتي ونغمض أعيننا، ونحقق كل ما تقولينه في خيالنا فحسب دون شقاء ولا نصب، ننجب، نربي، نبني منزلا.. تلك الأشياء تكون أجمل في الخيال لأنها لا تكلفنا شيئا، أما في الواقع فنقايضها بسنين من عمرنا.. ليست لي رغبة في أن أطيل فأنت شديدة المعرفة بي، ولن يكون أكثر ما أقوله بالقياس إليك جديدا ولا قديما..

تبدأ علاقات الحب بأقل الحالات عنفا وهي الود وتنتهي بأشدها قوة مثل الهيام والشغف، نحن بدأنا من حيث ينبغي أن ننتهي..

هل هذا يعني أني توقفت عن حبك؟ كلا يا عزيزتي، أحببتك وما أزال وسأظل أحبك.

وقفت هبة في الباب تختلس النظر إلى رجل على الأرض، ووجهه محشور في كتاب بين يديه، تساءلت بينها وبين نفسها :

-هل هذا هو جمال؟

شملها شعور بالرهبة انطلاقا مما قرأت عنه، عجزت عن النطق أو الخطو، انتشلها صوت متزن مما غشيها من رهبة وارتباك، نادى عليها جمال دون أن يرفع مقلتاه عن الكتاب الذي بين يديه.

-تقدمي يا هبة.

شلت حركتها، كيف ينادي عليها باسمها دون أن ينظر إليها، أو يعرف من تكون، ظلت متسمرة مكانها، وضع الكتاب جانبا واتجه نحوها، أمسك بيدها الباردة برودة الثلج، ودلف بها إلى الغرفة وكأنه ينقل صنما، أقعدها بجانبه على السرير، نظر في عينيها نظرة نافذة تحمل مزيجا من المشاعر التي لو أردت أن تفصل بينها ما استطعت مهما أوتيت من خبرة في هذا الفصل، مرر كفه على خدها وانكفأت على نفسها كالطفلة الخجولة، سالت عبرات على خده، وأنشأ يقول شاخصا ببصره إلى الأرض :

-لقد كبرت يا هبة؟ ما شاء الله، كان والديك ليكونا أسعد الناس بك الآن، كنت كل شيء بالنسبة لهما.

عقدت الدهشة لسان هبة، رجت أن يكون هذا اللقاء حلما، أو أنها أحداث تقرأها في رواية فتماهت معها، فما يجري لا يتقبله عقل ولا يحتمله منطق، أنى لجمال أن يعرف كل شيء عنها منذ أول لقاء، اسمها؟ وفاة والديها؟.

قام جمال من مجلسه وأمسك بكف هبة قائلا :

-لنخرج من بين هذه الجدران إلى فضاء أرحب، أحب الساحة التي تقع في طرف المستشفى، تشعرني بحرية أكبر.

تبعته بخضوع دون أن تنبس ببنت شفة، كان المرضى يلقون عليه التحايا من خلف الأبواب، الممرضون يحيونه بإيماءات من رؤوسهم كأنه واحد منهم، عندما بلغا الباب الذي يفضي خارج جناح الأمراض النفسية، ألقى جمال التحية على الحارس، وبادله بأحسن منها، ثم فتح له الباب، لم يُعامل معاملة النزلاء الذين يحظر عليهم الخطو خارج هذا المكان، اتجها خلف البناية الكبيرة التي تضم كل أماكن الإيواء حيث الحديقة الصغيرة، أو قل أنه من التجاوز تسميتها بالحديقة، لأن نصف المكان تغطيه الاسمنت، والنصف الآخر نثرت فيه بعض الورود من غير تنسيق ولا ترتيب، اتجه جمال نحو كرسي اسمنتي بعينه، وكأنه اعتاد الجلوس عليه كلما حج لهذا المكان، طلب من هبة أن تتخذ مكانا لنفسها بقربه، نظر إليها فألفاها تنظر إليه ببلاهة، فابتسم ابتسامة لطيفة ثم ضغط على كفها قائلا :

-أعلم أن عشرات الأسئلة تطوف بذهنك يا هبة، فلنرجئها، ولا تسأليني عنها حتى أحدث لك من أمرها ذكرا في ثنايا المحادثات التي ستجمعنا في المقبل من الأيام.

قالت تناجي نفسها : أي محادثات يقصدها الرجل، لعله مجنون بالفعل، أليس وجوده في جناح الأمراض العقلية دليلا على أن به لمما، تعجبت من قرارته المنفردة، ذكرتها طريقته بمعاملته لوالدتها، فهي لا تدري بأي حق يقرر مكانها، لكنها لا تستطيع

معارضته على كل حال، يخيل لها أنه عالم جدير بالاكتشاف، في أعماقها تود لو تكون جزءا من عالمه، ففي عالمه جزء كبير من والدتها..

قام جمال من مكانه وانحنى عند هبة بعدما استشعر الخواطر التي تتجاذبها واستغراقها في التفكير، ثم همس في أذنها.

-زوريني غدا صباحا، هناك أشياء كثيرة لنتحدث عنها. وانصرف.

عادت هبة في اليوم الثاني لتزور جمال وكلها شوق للقائه. كان حبها لأمها كبيرا وهذا هو الإرث الوحيد المتبقي من أمها. إرثها العاطفي. وهي إلى الآن لا تدري لما جعلت بداية البحث عن جذورها هو هذا الغريب الذي ليس من لحمها ودمها. فقد كان الصواب أن تبحث عن عائلة أبيها وأمها. لكن شيئا ما دفعها إلى البحث عن جمال أولا. ربما لأنه يستحق كما تظن في أعماقها. فلولاه لعاشت دون أم وعلم الله أي حياة كانت ستعيش. دخلت المستشفى وتوجهت للجناح الذي ينزل به جمال. سمح لها البواب بالدخول لأن جمال أنبأه بزيارتها. دخلت عنده إلى غرفته. استقبلها بحفاوة أمسك بيدها وأطال حتى شعرت هبة بالإحراج. لكنه لم ينتبه. جلس على حافة السرير وغرق في التفكير. ظنت هبة أن هذه حالة من حالات الشرود التي تأتيه دائما. اقتربت منه هبة. رفعت رأسه وإذا بالدمع يسيل على خذيه. سألته عن سبب بكائه وهو الرجل القوي. تشبهين والدتك يا هبة. عيناك تسافران بي إلى العهد الذي جمعني بها. ألم تقل لها أنك ستنساها. هل أخبرتك بذلك. لا، قرأته في الرواية. أي رواية يا هبة. الرواية التي كتبتها. عن أي رواية تتحدثين. بدا مصدوما من قول هبة. أخرجت هبة المذكرة من حقيبتها وقدمتها له. تصفحها. وانتابته موجة من الضحك الهيستيري.

فعلها الوغد. لقد تلاعب بي. لا يكفيه كل ما عانيته. قام وهو يضرب الحائط بقبضته لاعنا حسن. أشفقت عليه هبة وخافت منه في الآن نفسه. خصوصا عندما ذكر اسم حسن. تساءلت هبة في سريرتها كيف يعقل أن يؤمن شخص مثل جمال بجني يخدمه وهو المتعلم ذو الحظ من الثقافة. لكن أنى له أن يعرف بعض الأشياء التي لم يطلع عليها في رسائله لأبي من السجن كان يعلم باحتفاظي بصورة لأمي، وقد علم بمجيئي إليه، وبوفاة والدي قبل أن أحدثه بذلك. أوقفت هبة هذا السيل من التساؤلات المؤرقة وتقدمت من جمال فعانقته بقوة حتى هدأ روعه. استحي من هبة بسبب النوبة التي أصابته. قال لها دون أن يرفع رأسه:

- أسف يا ابنتي. أنا مجنون.

قالت له بصوت عذب:

- "المجنون هو الذي فقد كل شيء إلا عقله".
- هل قرأت هذا في المذكرة.
- نعم. لكنني كنت أحفظ القولة منذ الصغر. كانت والدتي تكررها دائما.

كانت تتكلم بلسانك. وتقتات على ما احتفظت بها ذاكرتها من أفكارك. تأثرت بك لحد كبير. لم أفهم شخصيتها كما ينبغي إلا بعدما قرأت الرواية. لقد أحبتك حبا صادقا. ولولا وجودي ما كانت لتفارقك.

- لقد أحببتها أيضا.

سألته هبة بمكر.

- أكثر من مريم؟.

- لن أجيبك عن هذا السؤال الماكر بشكل صريح. بإمكانك اكتشاف ذلك بنفسك. تأملي عنوان تلك الرواية بإمكانه أن يرشدك.

نظرت إليه وابتسمت.

- عرفت الجواب.
- لكن لما أردت نسيانها؟
- من أجلك
- وهل أفلحت؟
- كلا.
- جمال أخبرني عن حسن.

وهل تصدقين وجود جني اسمه حسن يا هبة؟ أنا مجنون. ألا تلاحظين ذلك. ألم تلاحظي منذ قليل الهيجان الذي كنت فيه. الأطباء يقولون أني مصاب بالفصام. وفي تقديري الذاتي فأنا أوافقهم الرأي.

- سمعت بالمرض، لكني لا أعلم عنه شيئا.
- إنه مرض مثير لم يتفق الباحثون على تحديد سبب معين له، إذ يرجعه بعضهم إلى أسباب عضوية، وآخرون يردونه إلى عوامل نفسية، فالذين يرجعون الفصام إلى أسباب عضويه يستندون في تبريرهم لنشوء المرض إلى نظريات مختلفة لم تتبلور، منها ما ترى أن سبب المرض تآكل أو ضمور بعض خلايا المخ، ونظرية أخرى تفسر المرض على أساس من الاختلال في إفرازات الغدد الصماء . ونظرية ثالثة ترجع المرض إلى الإصابة بإحدى الفيروسات، أما

الذين يعزون المرض إلى عوامل نفسيه فإنهم يستندون بدورهم على نظريات متعددة منها نظرية تقول إن المرض ينتج عن عقد مكظومة في اللاشعور مستندين في ذلك لنظريات أب التحليل النفسي فرويد. ونظرية ترى أن المرض هو نتيجة استمرار الشخص في العجز عن تكييف نفسه مع بيئته، ونظرية ثالثة ترى في المرض نهاية طبيعية لأولئك الذين ينطوون على أنفسهم وينعزلون عن الناس ويبتعدون عن الواقع . ولعل أرجح النظريات بهذا الخصوص هي نظرية أنصار مذهب التحليل النفسي، الذين يرون أن الفصام ناشئ عن صراع واقعي يعجز المريض عن مواجهته ، فيرتد إلى الطفولة في التفكير والسلوك تهربا من هذا الصراع ، فينطوي في عالمه الخاص منعزلا عن بيئته .

بقيت تتأمله وهو يحدثها عن هذا المرض الذي يعذب الكثير من الناس، تأثرت بعذوبة سرده للمواضيع والأحداث، شعرت أنها تعرفه منذ زمن، مسحت على رأسه وأسندت رأسها على كتفه ثم قالت. أنا أصدقك. أؤمن بوجود حسن. كما أؤمن بك. وأعرف أنك لست مريضا بالفصام.

- ورثت عن أمك قلبها، كانت لتصدقني أيضا. فلنقم بجولة. إني أيأس من الأمكنة. لا أستطيع ملازمة مكان واحد مدة طويلة.

- قبل ذلك أخبرني أولا عن تلك المذكرة التي تضم بين دفتيها رواياتك ؟. لما اهتجت عندما ذكرتها لك.

- انسي الأمر كانت نوبة عصبية فقط.

- لن نبرح مكاننا هذا حتى تخبرني. قالتها بإصرار الأطفال.

- ما دمت مصرة سأخبرك بسر.

راقها أن تسمع هذه العبارة. فقد كان جمال يستعملها مع والدتها في كثير من الأحوال. همس في أذنها.

- لقد سرقت مني تلك المذكرة.
- ومن سرقها منك.
- سرقها أحدهم. توسم في ذلك نوعا جديدا من التعذيب لي.

أرادت هبة أن تسأل عن شيء آخر فوضع سبابته على شفتيها الممتلئتين. ثم قال بصوت هادئ كأنه يخشى أن يسمعه أحد.

- هذا يكفي. لن نتحدث عن الأمر أكثر. ينبغي أن تغادري الآن. أراك غدا.

اقتادها حتى الباب وودعها بسكون. ثم عاد لغرفته. اتصلت خديجتو بهبة تطمئن عليها. حدثتها هبة بحماس كبير عن لقائها بجمال. تحمست خديجتو أيضا لسماع أخبار هذا الرجل الذي عرفته على الورق. قالت خديجتو.

أتمنى لو أجتمع به يوما. لقد كان حلمي في الكثير من المرات التي أفرغ فيها من قراءة كتاب أن ألتقي مؤلفه. فما بالك بشخصية من داخل الرواية.

- أظن أنك ستلتقينه.
- كيف ذلك.
- سأزوره غدا وسأطلب منه أن يرافقني إلى البيضاء.

- **وهل تظنين أنه سيقبل.**
- **عليه أن يقبل سأراوده على القبول. وإن رفض سأسرقه.**

قررت هبة أن تتعرف على المدينة في انتظار الغد موعد الزيارة الثالثة والأخيرة لجمال. لكنها ألغت ذلك بعدما خطر لها أن تتعرف على المدينة رفقة جمال. فهو حر يمكنه مغادرة المستشفى متى شاء. اعتكفت في غرفتها بالفندق تنتظر الغد بفارغ الصبر. زارته في الغد أخبرها الحارس أن جمال يؤم المرضى في الصلاة، انتظرت حتى فرغوا من صلاتهم، نادى حارس الأمن على جمال، فجاء وشفتاه تسبحان وتحمدان وتكبران، قابلها بشوق كبير لعله يجد في هبة ريح حليمة كما كان يعقوب يجد ريح يوسف عليهما السلام. حيته فرد التحية.

- **كيف حالك يا ابنتي.**
- **بخير.**
- **كنت متشوقة للقائك لأني أريد أن أتحدث إليك في موضوع مهم.**
- **تفضلي يا ابنتي كلي آذان صاغية.**
- **هذا آخر يوم لي هنا. ينبغي أن أعود للبيضاء وسأكون سعيدة لو ترافقني. أنا أعيش وحيدة الآن. وأريدك أن تكون سندي.**
- **أسف، لا أستطيع يا هبة. ليتني أستطيع ذلك.**
- **ما الذي يمنعك. أنت أيضا ليس لديك ما يبقيك هنا. حتى مريم انفصلت عنها.**

انقلب مزاجه واكتست ملامحه بعض الشدة بعد ذكر مريم. التزمت هبة الصمت. قام وأمسك بكفها قائلا هناك أشخاص هنا بحاجة إلي. دعيني أعرفك عليهم. طافا على غرف المرضى. ارتعبت هبة من نظرات بعض المرضى. قال لها جمال بعدما أحس بخوفها:

- **إن نظرات المرضى النفسانيين مميزة جدا، تكون دائما حادة ملغومة مشوشة يصعب تفسيرها، ولا ينبغي أن تخافي يا عزيزتي، كل الأمراض النفسية تبدأ بالخوف، فالخوف بداية الإكتئاب، كل هؤلاء الناس المرضى في العالم خافوا من شيء ما ذات يوم أكثر من اللازم، فسقطوا فريسة للاعتلالات النفسية، بعضهم خاف من الموت، وهذا الصنف هو الكثير بين المرضى، والبعض خاف خسارة حبيب، والبعض خاف خسارة المال...**

أشار لها إلى الغرفة الثانية أبصرت مريضين ودودين. لم يظهر عليهما أنهما يعانيان مشكلات نفسية. كانا عاديين، قال جمال يحدث هبة عنهما :

لقد كان أحدهما عندما جاء لأول مرة عنيفا كثير الصراخ، وانهال عليه الممرضون بالحقن المهدئة. فكان ما إن يستفيق حتى يواصل الصراخ. ومنذ أن بدأت أتحدث إليه إرتاح الجناح من صراخه الحاد، وكفى الممرضين عذابه. الطبيب وصف له الدواء حسب ما يقتضيه العلاج. لكن العلاج كان يخدر حواسه فقط. فالرجل لديه مشكلة حقيقية يرفض الإفصاح عنها، فقد كان موظفا بالبنك وتزوج بامرأة متسلطة، أنجبت له ثلاثة أولاد، ولأنها كانت متطلبة دفعته للاستدانة والقروض حتى غاص في مستنقعها. ضغط العمل والتعب هدّا أعصابه. حاجته المستمرة للمال شغلت عقله، ونكد

زوجته كان ينخر تماسكه كما كانت دابة الأرض تنخر عصا سليمان. ذات يوم صارت تهدده بالطلاق، بل تمادت في تهديدها كلما نزغ الشيطان بينهما، ولأنه إنسان مسالم يخاف الخروج عن المألوف، وسوست له نفسه أن السجن مصيره إن طلقته زوجه، وهو مفلس لا يكاد يقبض إلا أقل من نصف راتبه، فمن أين سيؤدي نفقة العيال التي ستفرض عليه بقوة القانون، وبعد هذه الهواجس صارت نفسه تسول له قتل زوجه كلما هددته بطلب الطلاق، عجز عن صد مخاوفه وصد فكرة القتل التي يعرف أنه عاجز عن تنفيذها لأنه ليس من المجرمين ولا ممن يرتادون السجون. لكن بمرور الأيام قاده خوفه لمكان أسوأ من السجن. قاده للجنون، أما المريض الذي معه فيعاني الفصام البسيط الذي يدفع المريض إلى العزلة والانسحاب من الواقع والبلادة الانفعالية، والخمول، وشرود الذهن، وعدم المبالاة وإهمال العناية النفسية. وهذا المريض كثير الادعاء، فمرضه يخلو من الأعراض الحادة ولا يستدعي المكوث في المستشفى، لكنه يصر على البقاء، وقد استطعت النفاذ إلى سبب ادعائه المرض الحاد لمكوثه بالمستشفى، لديه أخ متجبر جاهل، لا يعترف بشيء اسمه المرض النفسي، يحرض والديه على ألا يشتروا له الدواء لأنه مضيعة للمال، بل ويقتاده للعمل في الحقول كلما لمس فيه تحسنا ، إنه لاجئ من بيته للمستشفى، أخطر ما قد يصادف المريض هو أن يمرض بين الجهال، حدثني الطبيب عن حالته، وتظاهرت أني لا أعرف شيئا عن تمسك المريض بالبقاء مدعيا خطورته على العالم الخارجي، لكن الطبيب بذكائه اكتشفه وسيصرفه غدا، أو بعد يومين على أقصى تقدير. أما المريض الذي أشفقت عليه وظننت أنه مشلول فيعاني من الفصام كذلك من النمط السباتي ومن مظاهره جمود وصمت المريض، إذ يحتاج إلى من يعتني بأمره، فيطعمه ويسقيه، فهو يبقى محتفظا

بأي وضع يوضع فيه، كما أنه أحيانا يتخذ بعض الأوضاع التصنعية من تلقاء نفسه دون مبرر، كأن يرفع إحدى ذراعيه ويحتفظ بهذا الوضع فترة تدوم وقتا طويلا، ومثل هذا المريض لا تكفيه عناية الممرضين. أحاول ان أعتني به كذلك كلما وجدت لذلك سبيلا، أما المريض الذي لاحظت كثرة صراخه فمصاب بالفصام الهذائي : تبرز فيه بوضوح الهذاءات الاستعلائية أو الإضطهادية أو الإعتلالية ، غير أن هذه الهذاءات تكون طارئة ومفككة ومتغيرة ، لأن المصاب بالفصام الهذائي لا يستقر على حالة، فهو متقلب في أقواله وأعماله تبعا لشخصيته المفككة وهذاءاته المتعددة والمتغيرة.

- أراك تنتقي المرضى، ولا تحدثني إلا عن المصابين بالفصام.
- أجل أنت محقة. هذا لأني مهتم بهذا المرض، وأكثر قراءاتي عنه. فهو المرض الذي شخصوني به.

سكتت هبة كأنها تعتذر في صمت عن سؤالها. ولتكسر هبة الصمت الذي ساد بينهما قالت:

- لما يتم سجن هولاء إني لا أراهم ذووا خطر على الناس.
- بالعكس يا هبة إن بعض المرضى بالفصام أخطر مما تتصورين.

من المتفق عليه أن الفصام من أخطر الأمراض العقلية، وأكثرها صلة بالإجرام، فالمفصوم معظم جرائمه تكون اندفاعية يرتكبها بلا روية، ودون تدبير سابق، ويتعذر غالبا التوصل إلى مبرر منطقي للجريمة التي اقترفها المريض، بل هو نفسه يعجز في أحوال كثيرة عن بيان السبب الذي دفعه إلى ارتكاب جريمته، ويحدث أحيانا أن يقدم المريض على ارتكاب الجريمة بدافع من هلاوسه أو هذاءاته، كأن يهاجم

شخصا ويفتك به استجابة للأوامر التي يتوهم أنه يسمعها، أو لاعتقاده بأن ذلك الشخص ينوي قتله، كما يفسر جرائمه أحيانا تفسيرات غريبة كزعمه أنه قتل المجني عليه بقصد إحيائه بعد ذلك، ورغم ما يعتري المريض من البلادة الانفعالية، فقد تتغير حالته في بعض الأوقات فجأة، بتأثير بعض الهلاوس السمعية أو البصرية التي تنتابه، فيصرخ ويشتد هياجه، وربما أقدم على إشعال النار في المكان الذي يوجد فيه، وقد يحدث أحيانا أن يرتكب المفصوم جريمة خطيرة وبطريقة بشعة كأن يذبح شخصا بفصل رأسه عن جسده ، ثم يبدو عقب ذلك ساكنا مطمئنا كمن لم يرتكب أي ذنب، أما السرقات التي يرتكبها المفصوم ، فإنها تبدو جلية واضحة لأنه يرتكبها دون تحفظ، أو تدبير وإذا اتخذ بعض التدابير لهذا الغرض، فإنها لا تعدو أن تكون مجرد احتياطات بدائية ومشوشة، كذلك قد ينجم عن تفكك شخصية المريض عدم قدرته على كبح جماح غريزته الجنسية فيندفع إلى ارتكاب جريمة اغتصاب .

- ماذا عن الشاب الذي قابلك ضاحكا ثم ارتدّ في اللحظة نفسها باكيا هل هو مصاب بالفصام أيضا؟

لا، بل مصاب بالهوس الاكتئابي والمصاب بهذا النوع من الاضطراب النفسي يعاني من تغيرات فجائية في المزاج، فينتقل من حالة الفرح الشديد، إلى الحزن الشديد، من الأمل بالحياة والمستقبل، إلى الأفكار الانتحارية أو الانتقامية، وكل ذلك في غضون لحظات، لذلك يسمى هذا المرض الاضطراب ثنائي القطب، وأسباب هذا المرض وراثية، أو متعلقة بمرور المريض بفترة صعبة في الحياة أو مرحلة يسودها الحزن الشديد.

- يبدو أنك تعرف الكثير عن هذه الأمراض.
- إني أقرأ وأعاين الحالات في الآن نفسه. أحاول مساعدتهم ما أمكنني ذلك. كما أحاول مساعدتي نفسي.
- وهل تفلح في ذلك.

نعم. أحاول دفعهم لإيجاد الطمأنينة، سواء في الأوقات التي أقضيها أسمع شكاويهم وهمومهم، أو في الأوقات التي أعلمهم فيها أمور دينهم، وكيف يتوجهون بالدعاء لخالقهم عسى أن يشفيهم ويتوب عليهم، فنحن لم نتشبع بثقافة الدعاء كما ينبغي، الدعاء ثقافة على الآباء والأمهات أن يربوا أبناءهم عليها، نحن لا نحتاج الدعاء في الأوقات العصيبة فقط، بل نحتاجه في كل الأوقات.

- جميل. أنت إنسان طيب يا جمال، أما زلت مصرا على البقاء هنا؟
- أعتذر يا هبة لا أستطيع مرافقتك لأني سأجعل حياتك جحيما.
- لما تقول هذا ؟
- أنا مريض نفسي، سأشقيك..
- أعرف، أتظنني أجهلك الأمر.
- لست مصابا بالفصام يا هبة.
- بأي شيء أنت مصاب إذن ؟
- سأخبرك سرا.

اقتربت منه، ثم همس في أذنها :

**–	أنا لست مصابا بالفصام كما تم تشخيصي، بل أعاني من اضطراب العواطف الموسمي.**

رفعت هبة حاجبيها علامة الدهشة وكأنها تجاري طفلا صغيرا في حديثه، ثم قالت:

**–	أي مرض هذا ؟ لم أسمع به من قبل !**

**–	إنه نوع من الاكتئاب المرتبط بالتغيُّرات الموسمية، يبدأ وينتهي في نفس الأوقات من كل عام. تبدأ أعراضه في الخريف وتستمر طوال أشهر الشتاء، مستنزفةً طاقة المريض وباعثةً شعورا بتقلب المزاج بداخله. وإن كان هذا المرض قليلاً ما يتسبب في حدوث اكتئاب في الربيع أو بواكير الصيف، فإن الكارثة أني أصاب بذلك الاكتئاب حتى في الربيع وبواكير الصيف، فلا فصل لي لأعيشه مطمئنا يا هبة.**

**–	أنت بخير، ونحن في عز الصيف، رافقني وامكث معي حتى الخريف، ثم ارحل بعدها إن شئت.**

**–	إن أعراض المرض تظهر علي في كل الفصول يا ابنتي، وإن كانت خفيفة في الصيف لكنها تظهر.**

**–	هل هي أعراض خطيرة؟**

نعم، خطيرة على صاحبها وليس على الآخرين، فهي أعراض تجعل التعايش مع الآخرين أمرا صعبا، منها الشعور بالاكتئاب في أغلب الأيام، وفقدان الاهتمام بكل الأنشطة، ووجود مشكلات تتعلق بالنوم، والشعور بالخمول أو الاهتياج، وكذلك صعوبة

التركيز، والأخطر من ذلك تردُّد أفكار حول الموت أو الانتحار، مع الشعور بالضيق أو القلق، ولا أظنك تريدين تحمل شخص بهذا الشقاء يا هبة، إن هذا المستشفى هو المكان الوحيد الذي أنتمي إليه.

- لن أجبرك على مرافقتي يا جمال. إني أحترم قرارك بالبقاء، ومحاولة مساعدة هؤلاء الناس. لكن لي طلب واحد قبل أن أغادر ولا أظن أنك سترفضه لي.
- تفضلي. طلباتك أوامر إن كانت في الاستطاعة.

تعلم أني وَدِدتُ أن أزور بعض الأماكن التي تميز هذه المدينة. لكني لا أريد أن أفعل ذلك لوحدي. رافقني في جولة صغيرة تعرفني فيها على المدينة، أنت خير من أرافق هنا.

- وقتما شئت يا عزيزتي نزور كل الأمكنة التي نازعتك إليها نفسك.
- الآن؟.
- نعم الآن، لأني سأغادر اليوم.

أربكه خبر قرارها بالمغادرة. خيلت إليه نفسه أنها ستمكث أطول، لكن أي شيء قد يدفعها لذلك. كانت تريد أن تتعرف على الرجل الذي أغدق والدتها حبا، وها هي ذي تقابل ذكرى إنسان في مستشفى للمجانين والمخبولين من أمثاله، هكذا حدثته نفسه.

- الآن. هيا بنا.

خرجا من المستشفى ركبت هبة السيارة. انتظرته أن يركب، لكنه ظل متسمرا كأنه ينتظر إذنها. ضحكت في استغراب، وفتحت له الباب، قائلة بحماس يغلب عليه التعجب.

- **اركب.**

ركب وابتسامة تعلو وجهه. وضعت حزام أمانها، وطلبت منه أن يضع حزامه. قال لها:

- **نذهب إلى عين أسردون أولا.**

ابتسمت بمكر، وأومأت له بالقبول. سمع صوت الباب قد أغلق أوتوماكيا، ظن أن هبة تفعل هذا من باب الاحتياط والأمان. انطلقت بأقصى سرعة لا تلوي على شيء، سرعة عقدت لسان جمال فلم يدر ما الذي يقدمه أو يؤخره في الكلام، بعد أن استرجع أنفاسه قال لها :

هبة، هوني عليك إنك تبالغين في السرعة. كما أنك أخطأت الطريق، وجهتنا ليست من هنا، نظرت إليه نظرات مجنونة، ووضعت سبابتها على شفتيها تأمره بالسكوت، تلك النظرات لم تخف عليه، إنها نظرات تفتقد لأي منطق. نظرات المقبل على أمر ذي خطر. نظرات من لا يخشى شيئا.. أراد أن يتحدث فأعادت أمرها بالسكوت وهي تضع سبابتها على شفتيها اللتين لو ضغطت عليهما لتفجر الدم منهما. رضخ وسكت. اقتربا من مدخل الطريق السيار الذي يقود نحو البيضاء مرورا بخريبكة شعر جمال أن الأمر ليس مزحة، هبة تختطفه وتعاكس إرادته. وجدا حاجزا لرجال الدرك في مدخل الطريق، خففت هبة من سرعتها، أشار لها الدركي يسمح بالمرور. فكر جمال أن يستغيث بالدركي، ليخلصه مما هو فيه. لكنه تراجع وانفجر ضاحكا،

استغربت هبة من فعله. وما إن استقرت السيارة في الطريق السيار حتى رفعت يديها عن المقود وخففت من سرعتها ثم انفجرت ضاحكة أيضا، سألها ما الذي يضحكك. قالت :

- هذه الجرأة التي لم أعهدها في نفسي. كنت أظن نفسي جبانة لا تقدر على الإتيان بما هو غير معقول، ولم أتصور يوما أني قد أقدم على شيء مثل هذا، وإذا بي أختطف رجلا، وأنت ما الذي أضحكك.
- فكرت أن أستغيث برجال الدرك، لأتخلص من هذا الموقف قبل أن تضعي حدا لحياتينا، لكني خشيت ردة فعلهم، سيعتقدونني مخمورا، أو تحت تأثير مخدر إن أخبرتهم أني مختطف. ولا ريب أنهم قد يعتقلونني إذا نظروا في الخاطف. فلا أحد سيصدق أن شابة جميلة تختطف كهلا. كنت لأفعل ذلك لو كنت مكان الدركي.

ضحكا معا وقد نسيا ما قد مضى، ساد بعض الصمت بينهما، وقطعه جمال بقوله وهو يضغط على أصابع يديه بعصبية..

- أنت تشبهين والدتك يا هبة.

أي شيء يدفعه لتذكر حليمة في هذه اللحظة ؟، طوال سنين عجز عن نسيانها، وإن كان قد أوهم نفسه بالنسيان، كان فيما مضى تتراءى له خيالات وصور حليمة فيَزْوَرُّ عنها ازورارا شديدا، حتى لا يأثم بالتفكير في امرأة متزوجة، لكنه اليوم لم يعد يشيح بآديمه عن هذه الخيالات والصور، بل صار يتوق إليها توقا شديدا، فكلما ضاع منها شيء استلهمه من هبة، فلها ابتسامتها، عينيها، مرحها، شعرها ..

سكتت هبة ولم تعقب لأنها أكثر الناس إيمانا أنها تشبه والدتها. بلغا البيضاء، أرادت هبة أن تتجه مباشرة للمطعم. عرف جمال ذلك. فقال:

- **هل تسمحين لهذا المختطف بطلب.**
- **نعم، طلباته أوامر.**

إنها تواجهه بأساليبه نفسها.

- **خذيني للمنزل أولا. ثم اذهبي بعدها للمطعم إن شئت.**
- **حسنا كما تشاء.**

أخذته للمنزل، أعطته نسخة من المفتاح. ثم ودعته واعدة إياه بالعودة بعد الاطمئنان على سير أمور المطعم. قبل أن تصفق الباب وراءها قالت له ورأسها يطل من باب السيارة كما يطل البدر على الدنيا :

- **البيت بيتك. فافعل ما تشاء.**

استحم بالماء البارد ليشعر ببعض الانتعاش. ثم ارتمى فوق الأريكة، وشغل التلفاز ليشاهد الأخبار، فكم هو كلف بمتابعة أخبار الدول، وحوادثها المستجدة. بعد ساعة عادت هبة. لاحظت أن شعره ما يزال مبللا.

- **هل استحممت.**
- **نعم.**
- **ولماذا لم تغير ملابسك.**
- **تعلمين. أني لم أحضر معي أي ملابس.**

أسرعت في الخطو نحو غرفة والديها وحملت إليه بعض ملابس والدها مصطفى. تأملها جمال. عرف أنها ملابس مصطفى، ترحم عليه سرا، ثم قال لهبة وهو مطأطأ رأسه.

- **أعيديها لمكانها يا هبة. لا أستطيع إرتداءها.**

تفهمت هبة موقفه، ولاح لها مدى الحزن الذي في عينيه. عادت للغرفة لتعيد ملابس مصطفى للخزانة. ولتعود وصورة والدتها بيدها. قدمتها له. أمسكها فأصابت رعشة يديه، وسقطت الصورة على الأرض. وبكى حتى سالت الدموع على وجنتيه سيلا عظيما. فانكفأ على نفسه، عجز عن النظر في وجه هبة فحشر رأسه بين ركبتيه، كانت هبة تقف خلفه، استدارت وجلست بجانبه على الأريكة وعانقته تهدأ من روعه، شعرت بدمعه دافئا في جيدها، استشعرت صدق مشاعره فانفجرت هي الأخرى بالبكاء. بكيا حتى جفت أدمعهما. ساد الصمت بينهما لبعض الوقت، ثم مدت كفها تمسح دموعه قائلة وكأنها تحدث طفلا صغيرا.

- **كفانا بكاء. قم نتوسل في الحاضر سلوا للماضي.**

خرجا واتجهت هبة نحو سيارتها. باغثها جمال قائلا.

- **فلنتمشى.**
- **أعرف أنك تؤثر المشي على الركوب لأنك تعتقد أن أحسن الأفكار تأتينا ونحن نمشي كما يزعم فيلسوفك نيتشه. لكننا الآن لسنا بحاجة لأفكار عظيمة. سنتوجه فقط لشراء بعض الملابس لك.**

أطرق برأسه خجلا. وفي قرارة نفسه ندم كبير على استسلامه لهذا الاختطاف. شعرت هبة بهواجسه. ضربت على صدره بقبضتها الصغيرة وطلبت منه الركوب.

- أنت تسيء لي بإطراقتك تلك، إني مهما قدمت لك من معروف لن أوفيك حقك. أنا مدينة لك بسنوات من الحب قضيتها في كنف والدي معا.
- لست مدينة لي بأي شيء. فعلت ما حتمه علي الواجب وحبي لوالدتك.
- وأنا ؟ زعمت في روايتك أن كل ما فعلته كان من أجلي.

سكت ولم يجب. ابتسمت هبة ابتسامة المنتصر شعرت أنها أفحمته، إن إفحام جمال بالذات مصدر سرور كبير بالنسبة إليها، في أعماقها نزعة خفية لإحكام سيطرتها عليه، تبضعا ملابس كثيرة حاول جمال أن يعترض على جلها، فقد كانت غالية الثمن وفوق كل شيء هو يميل إلى البساطة والزهد، لكن إصرار هبة الأنثوي لم يكن ليقاوم، لم تكن تأخذ برأيه بل كل ما اشتراه كان مما استحسنته ذائقتها لا مما استحسنته ذائقته، خرجا من متجر الملابس وتجولا في المدينة، كثيرا ما كان جمال وافر الشرود أثناء تلك الجولة. فقد طافت بذكرياته كل الحوادث الجسام التي كوته هذه المدينة بنيرانها، عادا للمنزل. استلقى على الأريكة يستريح من عبئه النفسي، واختفت هبة لبعض الوقت لتعود وهي مغتسلة في وجهها نظارة، وشعرها منسدل على كتفيها وقد فعلت به قطرات الماء فعلها، كانت هبة في غاية الحسن والجمال، لقد خلقت في أحسن تقويم..، ولولا رجاحة عقل جمال، وحلمه وثباته أمام كل مغرية لانهار وهدَّ كيانه أمام ذلك القدر من الجمال المغري إغراء لا حدود له، لكنه على تقديره للجمال كان ورِعا، ولم يكن ينظر لهبة نظرة فيها شهوة، بل كان ينظر إليها نظرة الأب لابنته، جلست بجانبه على الأريكة، ووضعت رأسها على كتفه واطمئنان لذيذ يساورها. بقي جمال على حاله لم يتحرك ولم ينبس ببنت شفة، بعد فترة تنبه إلى أن هبة استسلمت للنوم أو أن النوم استسلم لها، انسل من مكانه بهدوء كبير وهو يمسك

برأسها حتى أسلمه لقاعدة الأريكة. دخل غرفتها وأتى بغطاء دثرها به، ثم أطفأ التلفاز، وأطفأ الأنوار متخذا لنفسه مكانا فوق أريكة أخرى، وعيناه تتأملان الظلام. جفاه النوم وغشيه الأرق. تذكر قول الأعشى :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق

وما بي من سقم وما بي معشق

الشيء نفسه يحدث معه ما به من سقم. وما به معشق فيأرق. لكنه في قرارة نفسه مؤمن أن مثله يأرق..

جمال يشعر بالسأم. فهو يقضي أغلب أوقاته في فراغ. حتى المطعم صار يسأم التردد عليه، ولا يخفف عليه وحشة المكان إلا الأحاديث التي تجمعه مع خديجتو كلما ترددت على هبة، يحب أن يناقشها في دروس الفلسفة، ويوجهها خير وجهة نحو مصادر، ومراجع يذكر لها شذرات منها، ويدفعها للتعلق بهذه المؤلفات. وكم تحب هي أيضا أحاديث جمال، هذه الشخصية التي عرفتها أول مرة على الورق قبل أن تعرف أن نسختها البشرية حقيقية تسير بين الناس، بل وتلتقيها. أسر جمال لهبة بما يكابده من سأم وقلق. لمح لها بدون قصد أنه يحب لو يعود لمدينته ويكون بين أصدقائه المجانين فلا شك أن العديد من النزلاء وفدوا، ورحل القدامى ليواجهوا مصيرهم من جديد. فإما أن يدّعوا الشفاء ويصبروا على أفكارهم السوداء ضاربين عليها أسوارا من الكتمان، أو أن يفصحوا، ويجهروا بهلاوسهم وهواجسهم فيعودوا للمستشفى إن وجدوا سريرا أو حيزا يأويهم. هبة نبأها حدسها أن جمال لم يعد يطيق هذه الحياة الجديدة المنعمة. عاش مكافحا كادحا ولابد له من عمل شيء حتى تنشغل عنه أفكاره، أو ينشغل هو عنها، نظرت إليه مبتسمة في خبث لذيذ.

جمال، ما رأيك في أن تعود للتدريس ؟، ألست تحب هذه المهنة ؟.

اندهش حتى فغر فاه، وكأنه يسمع كلمة التدريس لأول مرة في حياته. ثم رد عليها.

- تعلمين أنه لا يمكنني ذلك. فقد سبق أن طردت من تلك المهنة.

- أعرف. لكن، يمكنك أن تدرس في ثانوية خاصة. نحن في البيضاء، وما أكثر هذه المؤسسات التي ستحب العمل مع أستاذ ذو تجربة مثلك.

وافقت الفكرة هواه، وإن كان قد ساوره شعور غريب لا يدري مصدره. شعور لا يخلو من توجس ووجل، ثم قال لها :

- لست في مزاج يسمح بالبحث.
- لقد تكفلت بالأمر. تعلم أننا على مشارف الدخول المدرسي،
- إنسي الأمر يا هبة. لم أعد أصلح لتلك الأمور.

بعد مرور أيام كان في المطعم يجلس إلى طاولة يقرأ كتاب صور المثقف لإدوارد سعيد كان غارقا في القراءة منقطعا عن العالم، فجأة شعر بكفين ناعمتين تغمضان عينيه، ابتسم ثم جذب الكف اليمنى فقبلها وقال.

- تعالي واجلسي بجانبي يا هبة.
- لكن كيف تكتشفني دائما. ألعله حسن هو الذي يخبرك؟
- ابتسم ابتسامة خالصة ثم قال وعيناه تتأملانها.
- إن عطرك هو الذي يفضحك دائما.
- إذا ظهر السبب بطل العجب، نسيت مسألة العطر، اسمع يا أستاذ لقد عثرت لك على عمل في ثانوية. ستبدأ العمل بعد يومين. استعد.

صدمه الخبر، لأي شيء سيتسعد ! وبينه، وبين إلقاء الدروس، أو بنائها هوة سحيقة، لم تترك له فرصة التعقيب، همست في أذنه وهي تنصرف. المؤسسة سمعتها

طيبة، ستدرس بعض المستويات فقط، وأمر أولئك التلاميذ يسير، لن يرهقوك طمأنتني المديرة بذلك، فتح الكتاب لعله ينسى في ثناياه ما سمعه للتو. لكن الخبر وضع سدا منيعا بينه وبين إدوارد..

حمل جمال محفظته الجلدية التي اقتنتها له هبة، وفيها كل ما يحتاجه الأستاذ من وثائق وأقلام. ركب معها في السيارة استغرقه التفكير، فلاحظت هبة ذلك. سألته عما يشغل باله. فقال :

- ينتابني الشعور نفسه عند أول يوم توجهت فيه للمؤسسة. شعور الرهبة والاستكشاف، إني لا أدري يا هبة، هل ما أزال قادرا على تأدية مثل هذه المهام أم لا.

- اطمئن. أنت قادر على ذلك. أنا أثق بك وبقدراتك.

بلغا الثانوية المنشودة، فدخلا إليها بعد أن ركنا السيارة. الثانوية زاهية الألوان تتكون من طابقين وساحة تحيط بها الورود. كل شيء يبدو أن عينا رقيبة خفية مسلطة عليه، المشتغلون بالمؤسسة في حركة لا تتوقف. دخلا من الباب الكبير، واستدارا يمينا نحو مكتب المديرة، طرقت هبة بابه المفتوح، ما إن رفعت المديرة رأسها عن الأوراق التي كانت تتفحصها حتى تهللت أساريرها لرؤية هبة، فقامت لاستقبالها وعانقتها بحرارة، انتبهت لوجود جمال الذي كان يبدوا في غاية الهدوء والوقار فصافحته وطلبت منه الجلوس. دار حديث قصير بين المرأتين كله مجاملات لا بد منها، ثم ركزت المديرة بصرها على جمال قائلة:

- مرحبا بك أستاذ. نرجو أن تكون قيمة مضافة للمؤسسة وأن نستفيد من تجربتك.
- شكرا لك. إن شاء الله.
- هذا استعمال الزمن الخاص بك منذ الغد يمكنك أن تشرع في عملك.
- شكرا.

رفعت سماعة الهاتف واتصلت بأحد مستخدمي الإدارة الذي حضر قبل أت تضع المديرة السماعة. طلبت منه أن يأخذ جمال في جولة يتعرف فيها على مرافق المؤسسة، فقام جمال معه، وظلت هبة تتجاذب أطراف الحديث مع المديرة ريثما يعود. تعرف جمال على القاعات، وعلى بعض المستخدمين ورأى في وجوههم ضنكا يحاولون إخفاءه وراء ابتسامات مصطنعة. عاد لمكتب المديرة، صافحها شاكرا، ثم خرج ينتظر هبة، بدت هبة سعيدة ومتحمسة لأن جمال حصل على عمل، فعلى الأقل سيشغله هذا عن التفكير في المروق منها، ومن هذه المدينة. ركبا السيارة أدارت هبة مفتاح التشغيل ثم مالت على جمال وقبلته من وجنته. لم يبد جمال أي ردة فعل، بل ظل متسمرا كأنه صنم لا يتأثر. انطلقت هبة وهي تعدد له مزايا العمل الجديد، وبأنه سيتركه في علاقة دائمة مع القراءة والاطلاع. فكان هو يكتفي بكلمات مقتضبة يوافقها فيها على ما تقول، فجأة قال لها جمال :

- هبة نحن لسنا ذاهبين لا إلى المطعم، ولا إلى المنزل؟
- أعلم. ذاهبان للبحر.
- وما حاجتنا للبحر؟

- لنا فيه حاجة، يقال إن التأمل فيه يخفف من الضغوط النفسية. وإني أشعر أن الضغوط تثقل كاهلك.

- إن كان لا بد من ذلك فلنتأمل البحر بالقرب من المسجد. أحب ذلك المكان. – كما تشاء.

- ركنا سيارتهما بعيدا وترجلا يتمشيان حتى بلغا المسجد، جلسا على مقعد اسمنتي من المقاعد المنتشرة في الساحة، توجه إليهما طفل صغير السن يحمل بعض الورود وهو يلح عليهما في الشراء، تجاهله جمال، واشترت منه هبة وردة أهدتها له. شكرها ثم ألقى بالوردة بعيدا. اندهشت هبة من سلوكه الأرعن.

- هل هذا ما تفعله مع من يهديك ورودا؟

- هذه وردة لمستها الكثير من الأيدي، ودفع ثمنها لذا فلا قيمة لها.

نظرت إليه باستغراب..

- ما هكذا تهدى الورود.

- وكيف تهدى إذن.

- سأريك حينما يحين الوقت.

نهض، وأمسك بيد هبة، لنتأمل البحر. تبعته في خنوع. وهل تملك غير الخنوع أمامه وهو المتجبر حينا حتى لتكاد تنكر من معرفته كل شيء، والرقيق حينا آخر حتى لتخشى عليه أن يموت رقة. تأملا البحر في خشوع وصمت ثم قال :

- لندخل ونصلي.

- لم يحن الوقت بعد.

الصلوات غير المفروضة لا وقت لها. لا تنسي والديك من دعائك. علمت هبة أن القصد من صلاته الدعاء لحليمة. حنت هامتها ثم قالت :

- حاضر.

كيف فاتها هي أن تفكر في الدخول للمسجد للصلاة، والدعاء لوالدتها. إن حب جمال لوالدتها، حب عظيم، فهي لم تر رجلا من قبل تستمطر مقلتاه دمعا غزيرا من أجل امرأة، حتى والدتها لقد أحبت جمال حبا عميقا، وما العبارات الخاصة بجمال التي كانت تتكرر في أحاديثها، وشغفها بالأدب، وحرصها على الصلوات، إلا عربون وفاء لذلك الحب البائد بينهما.

التحق جمال بعمله الجديد، وسرعان ما تأقلم مع المتعلمين وعادت إليه شخصية الأستاذ القديمة، وفوق كل شيء، كان التلاميذ من ذوي السلوكات السوية، والتربية الحسنة، لا يحتاجون الكثير من الصرامة للانضباط، أحبهم، فأحبوه، فكانت حصصه فضاء للمناقشة والتعبير والتربية على القيم، أما الدروس فكان يطلب منهم تدوينها، ليتفرغوا للخوض معا في قضايا الفكر والأدب والاجتماع..

اطمأنت المديرة إليه، ووثقت به بعدما استقت آراء المتعلمين فوجدتهم يؤثرونه، ويكنون له الحب والاحترام، ولم ينقض وقت طويل حتى تعرف على الجميع، وبادلهم الود والاحترام مترفعا عن الخوض في سفاسف القول والدسائس التي يجيدها بعض ضعاف النفوس.

كانت علاقته مع الجميع تقتصر على التحايا المقتضبة، التي لا تشجع أحدا من العاملين بالمؤسسة على مد جسور التواصل أو نسج الصداقات المتينة معه، ولعل لشخصيته المتحفظة وتركه ما لا يعنيه دورا كبيرا في ذلك، إلا أن زميلا له اسمه يوسف، استطاع أن يصادقه بعدما رفعت الكلفة بينهما، واطمأن كل واحد منهما للآخر بعدما رأى كل واحد منهما من أخلاق صاحبه ما يرضيه.

يوسف أستاذ لمادة الاجتماعيات نحيف حلو تقاسيم الوجه، نشيط الحركة، خفيف الروح كثير الدعابة، يشهد له الكل بدماثة الأخلاق. حري بكل الأعمال التي توكل إليه وقادر عليها، يحبه تلامذته حبا كبيرا ويلجأون إليه في خلية الإنصات التي يتزعمها، وقد أشركني فيها أيضا، إلا أن دوري في هذه الخلية ما هو إلا حبر على ورق فحسب، لأني لم أنصت يوما لأي من المتعلمين، ولا حرصت على ذلك، أو سعيت

إليه. أما يوسف فيحرص على أن يقوم بدوره على أحسن وجه، ويعود له الفضل بعد الله تعالى في إنقاذ كثير من المتعلمين والمتعلمات من خطوب عظيمة كانوا على مشارفها، فقد كان لثقتهم به دور كبير في اعترافاتهم التي يرونها خطيرة، وبعضها كذلك بالفعل فذات يوم جمع يوسف أعضاء الخلية بحضور المديرة وأسر لنا أن إحدى المتعلمات أفصحت له بأنها حامل، وأنها مقبلة على وضع حد لحياتها خوفا من والديها، ومن المجتمع، نزل الخبر على الجميع كالصاعقة، تم الاتفاق على استدعاء والديها لأن الأمر يقتضي أن يحاطوا علما بهذا المصاب الجلل. فتدخلت مصرا على استدعاء الأم لوحدها دون الأب، لكن بعض زملائي رأوا أن العكس هو ما ينبغي أن يكون، فالأب هو المسؤول، شرحت لهم أن المسؤول الحقيقي هو الشرير الذي زرع تلك البذرة في أحشاء هذه المراهقة، وأن استدعاء الأم عوض الأب له ما يبرره، فالأم أقدر على التفهم، وأقدر على التماس الأعذار للبنت من الأب، وأننا في مجتمعنا تحمل النساء مسؤولية، وتبعات أخطاء أبنائها، وكثيرا ما يُتوَصل إلى حلول وتسويات في الخفاء دون أن يعلم الرجال بأي شيء، وإن علموا لا يعرفون من الأمر غير ظاهره. وافقتني المديرة على الفكرة، وتم استدعاء الأم فألقي إليها الخبر فكذبته مرة أولى، وثانية، ثم صدقته في الثالثة بعدما طابق الواقع، وسمعت من ابنتها. بكت بكاء شديدا، ورجتنا أن نكتم الأمر لأن والد التلميذة إن علم بالأمر سيقتلها، ثم يقتل نفسه، نظر إلي الجميع وكأنهم يوافقونني الرأي فيما طرحته ولو جاءت الموافقة متأخرة. اتفقنا على كتمان الأمر وشرعنا في البحث عن حلول رفقة الأم، فاهتدينا لأحدها، وهو أنه عندما سيبدأ بطن التلميذة بالانتفاخ ستنقل لدار رعاية الأمهات العازبات التي تديرها إحدى الجمعيات التي تواصلت معها المديرة. أما فيما يخص تبرير غياب الابنة عن

منزل الأسرة فترك لأمها تدبير ذلك، وكذلك ما يخص متابعة الجاهل الشرير الذي تسبب في المشكلة.. أما ما تعلق بالمخدرات فكان يوسف بارعا في انتشال المتعلمين من براثن تلك الآفات بكل احترافية. وعلم الله كم من المتعلمين قد رد للطريق المستقيم..

كان جمال يقضي بعض الأوقات أحيانا مع يوسف في المقهى بعد انتهاء دوام العمل، وقد سمح له هذا بكسر الرتابة التي كانت تحيط بحياته، لم يعد يعاني من ذلك الفراغ القاتل، فحياته موزعة بين المؤسسة والمطعم والمنزل ثم المقهى أحيانا، لكن هذا الأمر إن كان قد أراح باله إلا أن بالا آخر لم يعرف الراحة، وهو بال هبة فقد شعرت أن جمال يبتعد عنها شيئا فشيئا، فقد قلت اللقاءات بينهما بل إنها اقتصرت على المنزل في كثير من الأحيان.

ذات يوم جلس جمال مع يوسف في المقهى المعتاد، طلب يوسف قدحا من القهوة وكاد أن يطلب المثل لجمال، لولا أنه تنبه إلى أن يترك له الاختيار. طلب جمال كأس حليب فقط. نظر إليه يوسف ببعض الاستغراب.

- كيف لرجل مثلك ألا يشرب القهوة، قدح واحد منها كفيل بأن تهدأ أعصابك بعد ساعات العمل الشاقة هذه.
- إني لم أشرب القهوة منذ زمن. فهي تهيج أعصابي عوض أن تهدءها.

أتاهما النادل بطلبهما فطفق يوسف يخلط السكر بالقهوة بعصبية ظاهرة. أما جمال فكان في غاية الهدوء، وهو يرتشف حليبه. أحس جمال بعبء ثقيل يعذب يوسف فآثر أن يفاتحه في نقاش لعله يخفف عنه بعض الوجع. قال جمال مخاطبا زميله بلهجة الناصح الصادق.

- يوسف. إن الرب يغتفر كل الأخطاء لكن جهازنا العصبي لا يفعل ذلك أبدا كما قال أحد علماء النفس. وإني أراك تخرب جهازك العصبي يوما بعد يوم. وأعلم يا صديقي أن ثمن ذلك غال جدا. لا أدري طبيعة معاناتك ولا علة قلقك المستمر لكني أرجو أن ترأف بنفسك وتخفف من تناول هذه السجائر التي تسرق من لحظات حياتك.
- خيبات الأمل يا جمال. إن خيبات الأمل هي أشد ما قد يحطم المرأ. وأنا امرؤ خاب أمله في حبيبه وعندما يخيب الأمل في الحبيب يخيب في الحياة لأننا إنما نرى الدنيا من خلال عيونه.

صحت تنبؤات جمال حول زميله. الآن علم أن وراء مأساة الرجل امرأة. حاول أن يستدرجه للإفصاح عن سره. فقال :

- ابتسم. لذلك أهديتك قصيدة إيليا أبو ماضي

قال يوسف :

- التي كانت سمائي في الهوى صارَتْ لنفسي في الغرامِ جـهنّما
- ابتسم و اطرب فلو قارنتها لقضيت عــمرك كـله متألما

أسفرت شفتا يوسف عن ابتسامة مجنونة، ثم قال :

- كان جوابك هذا ليصح لو أني فارقتها. لكني ما أزال معها وما تزال رابطة الزواج تقيد أحدنا بالآخر.
- أعتذر يا صديقي على جوابي الذي لم يكن في محله.
- لا عليك.

صمت جمال، وكأنه يعتذر صمتا، فقد ظن أن الرجل كان يتحدث عن امرأة عابرة في حياته. وليقطع يوسف هذا الصمت أشعل سيجارة جديدة، وأخذ منها نفسا عميقا ثم مال بكرسيه للوراء وقال :

لقد أحببنا بعضنا حبا جارفا أيام كنا طلبة. كنا ندرس في أحد معاهد الفندقة معا. كنت ناقما على توجهي لهذا المعهد بعدما أنهيت دراستي الجامعية، إلا أن كل شيء تغير بعدما التقيتها، صارت الفندقة، وكل ما يتصل بها من أحب الأشياء لقلبي. لازمتها ولازمتني، منذ نشأة علاقتنا كنا نقضي كل الأوقات مع بعض. كنا أزواجا. كانت تنقصنا وثيقة اعتراف بذلك فقط. ولأننا كنا نؤمن في قرارة أنفسنا أننا متزوجين أوهمنا الآخرين بذلك، وابتعنا خاتمين نسجت حولهما سارة قصصا عن الخطوبة، وحفلة الزواج الصغيرة. فكنت ترى زميلاتها ينظرن للخاتم في أصبعها فتبارك لها بعضهن، فترد بخجل وبراءة، ثم تعذلها بعضهن على عدم دعوتهن، فتقسم بأغلظ الأيمان أن الأمر كان مفاجأة، وأن لا احد حضر غير العائلتين قاطعة وعودا صلبة على دعوتهن للعرس بعد التخرج والعمل. لقد صرنا زوجين أمام العالم المصغر الذي نعيش به، ولم يتبق لنا غير أن نعيش كما يعيش الأزواج. لذلك اتفقنا أن ننتقل للعيش معا، وبالفعل قمنا بذلك. أمضينا فترة التكوين نرتوي من عسيلات الحياة، ونجدّ في الدرس والتحصيل. وكان لنا كل شيء، حللت في المرتبة الأولى في نهاية التكوين، وحلت سارة في المرتبة الثانية، وكان المعهد يتكلف بتشغيل الذين يحلون في المراتب الأولى بتنسيق مع شركائهم. غمرت السعادة سارة واطمأن قلبها لأننا سنلج سوق الشغل مباشرة، وسنتزوج زواجا حقيقيا، وظلت مصدومة من نجاحنا الساحق رغم أننا كنا نخصص للحب ضعف ما كنا نخصصه للدرس والتحصيل.

ابتسم جمال وود لو يخبر يوسف بالجواب على سؤال سارة لكنه احتفظ به خشية أن يتوجس منه الرجل. يوسف وسارة أشبعا جوع الجسد فكيف لا ينكبان على إشباع جوع العقل؟. ارتشف يوسف رشفة من قهوته وأكمل سرده لأحداث حياته.

ولجنا سوق الشغل. عملت ساقيا في فندق من خمسة نجوم، وعملت سارة بالمطبخ. ما إن قبضنا أجرة الشهر الأول حتى أصرت سارة على جعل زواجنا حقيقة، وافقت بكل سرور، تم التنسيق بين الأسرتين سريعا، فتم كل شيء بكل يسر، وحصلنا على تلك الوثيقة التي لم تغير شيئا في حياتنا غير أننا صرنا مسجلين في سجلات القضاء على أننا من المتزوجين. أما حياتنا فاستمرت كما هي، عمل، وكدح، وحب، ولو أن هذا الحب اختلفت ظروف ممارسته عن أيام التكوين، فقد سرق العمل الكثير من متعته وحيويته. لكننا لم نستسلم يوما، بل كنا نغتنم أي فرصة لنزيد في جرعات حبنا. بعد مضي عام كان كل شيء متوفرا، كان لدينا كل ما يحتاجه المتزوجون، وكان وضعنا المادي مريحا. كان ينقصنا شيء واحد. ثمرة لحبنا الجارف. قررنا الإنجاب وزرعت بذرة في سارة أخذت بالنمو أمام أعيننا شيئا فشيئا إلى أن خرجت إكرام للوجود. هكذا أسميناها إكراما للحب الذي جمعنا. مع مجيء إكرام عرفت حياتنا بعض التغير الذي يرافق ميلاد الأبناء، فاستطعنا التغلب على كل المشاق التي تترتب عن اشتغال الوالدين، لكن شيئا واحدا لم أستطع التغلب عليه. كنت أخشى أن تكبر إكرام، لقد واجهت كل عائلتي المحافظة عندما تحفظوا عن عملي واعتبروه آثما. لا أحد منهم استساغ أن أكون ساقيا أملأ الأقداح خمرا آناء الليل حينا وأطراف النهار حينا آخر. لكن ابنتي شيء آخر، لن أقدر على مواجهة تساؤلاتها عن عملي. ولست بالقادر أيضا على أن أُفهمها أن عملي عادي لا حرج فيه.. ظلت الفكرة تعذبني إلى

أن بلغت إكرام السادسة من العمر، وقد كانت متقدة الذكاء، مرهفة الحس، تجعلني أفخر لكوني والدها. خلوقة مهذبة تهذيبا شديدا، وكأنها تتنزه عن مكر الأطفال وشقاوتهم. كان يؤذيني أن أجيء للمنزل ورائحة الخمور والسجائر بمختلف أنواعها تفوح مني، لذلك كنت أحرص على التطيب والتعطر قبل دخولي المنزل. كلما دخلت كانت تجري نحوي فتعانقني وتأبى أن تفارقني ولو للحظة. كنت أناديها صديقتي وتناديني بالصديق. ذات يوم عدت من العمل بعد منتصف الليل. وأخبرتني سارة أن صديقتي، كانت تسأل عني حتى استسلمت للنوم، توجهت نحو غرفتها قبلتها قبلة خفيفة، وتأملتها جليا، وأنا أتساءل ماذا سيكون موقفها بعد أن تكبر وتعرف أني مجرد ساق في حانة؟ استبد بي التعب، فأن تكون ساقيا ليس بالأمر اليسير. لأنك تمضي كل الساعات حريصا على إشباع ظمإ السكارى حتى يصلوا مبتغاهم، إما في النسيان، أو السلو من عشق، أو في خلق لحظة سعادة كاذبة، أو إرضاء نزعة.

توجهت لغرفة النوم ارتميت على السرير دون أن أنبس ببنت شفة، واستسلمت لنوم لذيذ لم أستيقظ منه إلا على صوت إكرام، وهي توقظني لأجهز لها الإفطار فوالدتها توجهت لعملها باكرا. عانقتها وطلبت منها أن ننام لساعة أخرى لكنها رفضت وأخذت تضرب صدري بيديها الصغيرتين قائلة :

- انهض أيها الكسول انهض.

نهضت مسرورا على وقع حماسها. هيأت الإفطار وتناولناه معا، وقبل أن نقوم من مقامنا قالت لي صديقتي.

- أبي أريدك أن تأخذني معك يوم الأحد لمكان عملك. هكذا سأقضي يوم الأحد معك كاملا.

كان طلبا صادما، وخطيرا في الآن نفسه. لم أرد عليها لكني كنت قد اتخذت في قرارة نفسي قرارا كبيرا. بل قل أني اتخذته منذ زمن لكني لم أكن قادرا على تفعيله فحسب لأني مسؤول عن أسرة. لبست ملابسي وألبست إكرام هندامها أيضا وخرجنا. توجهنا للفندق الذي أشتغل فيه، هذه من المرات القليلة التي ألج فيها الفندق فأتوجه للإدارة عوض البار. ألفيت المدير في مكتبه ألقيت التحية عليه، فبادرني بمثلها، تحدث مع إكرام بشكل لطيف، وأهداها ورقة نقدية، شكرَتهُ وشكرْتهُ كذلك. وضعت رسالة استقالتي على مكتبه. رسالة كنت قد كتبتها منذ ميلاد ابنتي وعجزت عن تقديمها طوال ست سنوات، استغرب المدير من إقدامي على هذا القرار، واستفسر إن كان بيني وبين أحد الموظفين شنآن، لكنني أخبرته أن علاقتي مع الجميع بخير، إلا أني لم أعد أستطيع القيام بهذا العمل، حاول استبقائي بكل السبل لما عهد عني من مواظبة وتفان في العمل. لكن قراري كان كالرصاصة المنطلقة لا مجال لعودتها.. طلب مني المدير الاستمرار لبعض الأيام ريثما يجدون ساقيا جديدا يحل مكاني فأومأت بالموافقة. عدنا للمنزل أنا وصديقتي، وطلبت منها ألا تخبر الماما بزيارتنا للفندق فقطعت لي عهدا بذلك. بعد يومين جاؤوا بساق جديد ليحل مكاني. أرسل المدير في طلبي وأعطاني حسابي كاملا، شكرته وانصرفت. كنت سعيدا جدا وإن كنت قد فقدت عملي، لا رائحة سجائر بعد اليوم، ولا ضجيج سكارى، وإن كان السكارى في فندقنا ممن يصطنعون التهذيب حتى في سكرهم. المهم أني انتهيت

من ذلك العالم، لن يضع أحدهم كأسه أمامي بعد اليوم يأمرني أن أسقيه. بعد اليوم سيكون مأكلي ومشربي من حلال.

قبل أن أبلغ البيت اتصلت بعائلتي لأخبرهم أني استقلت من عملي، فرحت والدتي فرحا شديدا، ليس لأني استقلت بل لأن الخبر سيخفف من سخط أبي عني، أو قد يرفعه، طلبت منها أن تتوسط لي عند أبي لعله يسامح ويصفح. فهو لم يزرني يوما ولا تحدث إلي حديثا مطولا، كانت الأحاديث التي تجمعنا في زياراتي لهم أحاديث عادية لا ودّ فيها ولا شعور، وطوال هذه السنوات لم يقبل والدي مني درهما واحدا، بل حرم على والدتي أيضا أن تأخذ مني أي شيء، ولو أن بهم خصاصة. وذات يوم اشتريت لوالدتي آلة تصبين رأفة بها في أيام البرد، وفي زيارتي الأخرى لهم لم أجد لها أثرا، فأخبرتني والدتي أن أبي تصدق بها، وإن كان لا يرجو منها لا أجرا ولا ثوابا. كانت هذه الآلة في نظره أذية وجب التخلص منها.

آه، شعرت بالرضا عن نفسي باتخاذي لهذا القرار الخطير، وحاولت الاستمتاع بهذا الرضا قبل أن أفاتح سارة في الموضوع. عادت سارة فوجدتني ألعب مع إكرام، وعلامات السرور بادية علينا. انهمكت معنا في اللعب، ثم توقفت فجأة وعلامات الدهشة بادية عليها لأنها انتبهت أن وجودي في المنزل بهذا الوقت خطأ. طلبت منها أن تسبقني لغرفة النوم، وطلبت من إكرام أن تشاهد التلفاز بعدما رفعت من صوته خشية أن تنتبه لجدالنا إذا ما ارتفعت أصواتنا، دخلت الغرفة سألت سارة :

- ما الخبر؟
- لقد استقلت من العمل.

- ماذا ؟هل تمازحني.
- بل أنا جدي فيما أقول.
- ولماذا لم تشركني في قرارك.
- لأني على يقين أنك كنت لتقنعيني بالبقاء والتراجع، لكني أعتذر هذا لا يبرر انفرادي بالقرار، كان علي إخبارك، لكن سبق السيف العذل.

أرغدت سارة وأزبدت وانتابتها نوبة بكاء وهيستيريا، وأبت إلا أن تتهمني بالتقصير وبأني أسعى لتدمير حياتينا. عرفت أن أي كلمة سأقولها ستزيد من تأجيج الوضع فالتزمت الصمت واندفعت للخارج.. رغم هول الصدمة التي تلقتها زوجتي إثر النبإ الذي اعتبرته عظيما لم أشعر بأي تأنيب ضمير، بل أحسست بنوع من السرور، وكنت ابتسم بخبث وأنا أتمشى في الشارع كأنني انتصرت على نفسي، لكن تلك الابتسامة لم تكن لتستمر طويلا إذ نهشتها مخالب اليأس والكآبة، مرت الأيام، وأنا جالس بالمنزل دون عمل، أحسست بتغير كبير في تصرفات زوجتي، ولولا معرفتي الحقة بها لأنكرت عليها كل تصرفاتها.

ذات ليلة ونحن نصيب عشاءنا سألتني دون أن ترفع عينيها عن الصحن الذي أمامها إن كنت أبحث عن عمل. كأن سؤالها أيقظني من غفلة أنكرها.

- لا. لكني سأفعل.

من الأفضل أن تفعل حتى لا نصرف مما ادخرناه، لا أستطيع أن أقوم بكل شؤون حياتنا.

- نعم أعلم ذلك. أنت محقة سأبدأ منذ الغد.

نبرة جديدة تلك التي تحدثت بها سارة، وكأننا متعاقدين لإنشاء أسرة فحسب، وليس بيننا حب، المواقف هي التي تكشف الستار عن كل شيء، بل إن المواقف هي التي توقظ الإنسان من سكرة الهوى، هل تموقفت منها؟ كلا، لم أتخذ منها موقفا بل التمست لها الأعذار، فقد تعلمت أن على الإنسان أن يلتمس الأعذار لأخيه الإنسان، فما بالك بالزوج، فهو الأولى والأحق، شرعت بحلول الغد في البحث عن عمل واستمر بحثي لشهر كامل دون أن أوفق. بعض الفنادق أغلقت كل أبوابها في وجهي، وبعضها فتح لي بابا واحدا يؤدي بي إلى العالم الذي صبئت منه. عالم الأقداح والكؤوس وضجيج السكارى، وقصصهم الحزينة التي تتكرر كل ليلة. ولم يكن ذلك بالشيء الغريب إذ إن سيرتي المهنية تشي بتجربة واحدة، وهي أني ساق، ولعل ذلك كل ما أجيده، تصرفات زوجتي تزداد حدة يوما بعد يوم، وشكواها تتضخم مع كل إنفاق تنفقه، حتى اضطررت لمجابهة حدتها بحدة أكبر، وشكواها بالإهمال واللامبالاة، وفي لحظة من اللحظات سفهت الحب ولعنته، ورأيت أن ما كنا نظنه حبا بيننا لم يكن سوى توافق في المصالح، لكني عندما أنظر في عيني ابنتي أتراجع وأستغفر الله، لأن هذه الابنة هي ثمرة حب صادق جمع بيننا، ثم أعود بعدها لألتمس لزوجتي الأعذار، ولا أنكر أنه مررنا بأيام سود كان الخلاف يصل بيننا أوجه لكننا عدنا لاستلام الدفة، وها نحن ذا نحاول الصمود أمام تلاطم أمواج الحياة بعدما تيسر لي العمل في هذه المؤسسة، وإن كان الأجر لا يبلغ حتى ثلث ما كنت أجنيه عندما كنت ساقيا دون احتساب الأجرة .

- لا يهم الأجر يا صديقي ما دمت راضيا عن نفسك، أنت تُعلم الآن الناشئة قيما خالدة، وتنتشلهم من السفاسف التي قد يدفعون إليها. صرت مصلحا، والمصلحون لا يغتنون.

- ابتسم.

- نعم أنت محق، يا جمال. إن تعليم هؤلاء الصغار أهون من سماع ثرثرة الكبار وقد ذهبت الخمرة بألبابهم، وتلاعبت بعواطفهم وأحاسيسهم.

- إن العواطف والأحاسيس أكثر ما يدفع الناس للشرب وارتياد الحانات يا يوسف. ولعلك من تجربتك الطويلة قد لا حظت أن أكثر ما كان يدفع زبناءكم إلى معاقرة بنت الكرمة هو ما تعلق بالشعور والإحساس، ويندر أن يدفع العقل الناس لمعاقرة الخمر.

- يبدو لي أنك خبير بهذه الفئة أيضا يا جمال، وإن كان يظهر عليك الوقار.

ابتسم جمال وأخذ يحرك كأس الماء الذي أمامه حركات دائرية، ولم ينبس ببنت شفة، ثم أردف يوسف قائلا :

أنت محق لقد شهدت طوال ليالي عديدة عمليات انتحار ووأد لأحاسيس ومشاعر أرهقت أصحابها، فكان بعضهم يخرجون صور معشوقاتهم أو النساء اللواتي أحدثن صخبا في حياتهم من المحافظ، فيمزقونها إربا إربا، ويرمون أشلاءها في منافض السجائر، ولأني كنت أعرف بعضهم حق المعرفة، وأعرف المراكز، والمراتب التي بلغوها في السلم الاجتماعي، فقد كنت أعجب غاية العجب كيف ينهزمون ويدب فيهم الوهن دبيبا حثيثا مع كل كأس يرتشفونها، وهم المستأسدون على الناس

في مكاتبهم، وكثيرا ما قادني الفضول لمعرفة صنف المرأة التي حطمت أحد أولئك الرجال، فأكتفي بتخيلها امرأة جميلة، إلا أن موحى، وهو مساعدي الذي ينتقل من طاولة لأخرى كالريشة ملبيا كل الطلبات بابتسامة عريضة حول تلك الصور المتخيلة إلى حقيقة أحيانا كثيرة، فقد كان يجمع أشلاء تلك الصور، ونعيد جمعها لنحصل على الصورة كاملة، لم تكن كل النساء جميلات، بل منهن متوسطات الجمال، ومنهن من لا حظ لها من حسن، ومنهن أطلال نساء ذوات جمال بائد. "ليست الجميلات فقط من يأسرن قلوب الرجال"، كان هذا حكم موحى بعد تجميعه لأشلاء عشرات الصور،

وإني أذكر أحد زبنائنا الدائمين، وهو موظف كبير كان كلما تحكمت الخمرة في وجدانه، وغيبت عقله، أسهب في الحديث عن معشوقته إسهابا عجيبا، ولا يترك وصفا محمودا إلا نسبه إليها، وكان موحى ماكرا، اكتسب خبرة كبيرة في التعامل مع السكارى، وإيهامهم بالبطولات، وأنهم على صواب في كل ما يفترونه، أو يتفوهون به. فدفع الرجل إلى عرض صورة معشوقته علينا، وتبدو من خلال الصورة امرأة عادية تميل إلى السمرة ولو أردت أن تتلمس مواطن الجمال فيها ما وجدت موطنا غير شفتيها الممتلئتين وأنفها الدقيق. لكن وظيفة موحى هي تجميل القبيح وتقبيح الحسن، مدح موحى معشوقة الرجل مدح الشعراء للخلفاء، والتمس الأعذار للزوجة، مؤكدا أن المرأتين معا تستحقانه، تهللت أسارير الرجل لأن موحى قاده للشعور بالرضا بعدما خلق نوعا من التوازن بين الزوجة والعشيقة، ونزه الرجل عن الخطأ، هنا أمر الرجل بقنينتي نبيذ لي أنا وموحى، نظر إلي موحى مبتسما ابتسامة خبيثة دليل الانتصار، واختفى بين الطاولات يبحث عن خاطر آخر منكسر ليصلحه يكسب من ورائه مالا، ولا أخفيك أن مداخيلنا كانت كبيرة كل يوم، لم نكن أنا وموحى نشرب،

وكان كل ما يهدى إلينا من خمر ونبيذ نقبض ثمنه، كان موحى خبيرا بالناس، قادرا على دفعهم للشعور بالرضا والطمأنينة، لم يكن يعارضهم في أي شيء، بل كان يزكي مواقفهم بقصص مشابهة انتهت نهايات سعيدة، وأغلب الظن أن كل قصصه كانت كذبا وافتراء، كثيرا ما تخيلت كيف كان موحى ليكون لو أنه أصاب حظا من الثقافة؟

- كان ليصطلح، فالثقافة تهذب النفس.
- نعم ربما.
- أو كان ليبقى كما هو، أو أغلب الظن كان ليزداد خطورة، فقد عرفت مثقفين. يأتون بما لا يأتي به الدهماء.
- صحيح يا جمال، عاينت بعضهم أيضا.
- أخبرني يا يوسف هل إذا وجدت عملا آخر غير التدريس يذر عليك ربحا تكون أنت المتحكم به، تقبل به.
- طبعا يا صديقي. كان ذلك ليعفيني من نظرات سارة الطافحة عذلا وتقريظا.
- أعرض عليك تسيير المطعم الذي تناولنا فيه غذاءنا ذلك اليوم،
- هل تقصد ذلك المطعم الكبير بالذات ؟
- نعم، هو بعينه.
- ومن يرفض عرضا كهذا يا جمال ؟
- عملك لن يرتبط بأجر شهري. بل سيرتبط بالأرباح كلما كانت الأرباح أكبر، كان نصيبك أكبر. سنتفق على نسبة مئوية مرضية لك.
- هذا كثير يا جمال.

- أنت رجل صالح يا يوسف، ولي كامل الثقة أنك ستبلي البلاء الحسن في تسيير هذا المطعم.
- موافق. أستحسن الفكرة
- غدا نتحدث في الأمر إذن. لا بد أن أستشير صاحبة المطعم. اتفقنا.

شد يوسف على يد جمال يعبر عن امتنانه.

- شكرا جمال شكرا.

حدّث جمال هبة بالأمر فأبدت بعض التحفظ من الفكرة فقال جمال :

- ينبغي أن تتفرغي لحياتك يا هبة ولدراستك. المطعم سيكون بأيد أمينة. أعرف ما أقوم به.
- الأمر بيدك افعل ما تشاء، تعلم أني أثق بك كل الثقة.
- حسنا. غدا سنلتقي مع يوسف.
- كما تشاء. كيف تسير أمور العمل. يبدو أنه يأخذ كل وقتك. أحيانا أفكر في أن أتسبب في فصلك خلسة لتعود إلي.

تبسم من قولها ضاحكا.

- وأنت كيف تسير دراستك؟ أرجو أن كل شيء بخير.
- بخير

ثم ارتمت على الأريكة بجانبه.

- ماذا عن حياتك العاطفية يا هبة إن كان مسموحا لي بالسؤال عن هذه الناحية؟

- مسموح لك بكل شيء يا جمال. الآن لا رجل في حياتي، أو لعله لم يكن أبدا، سبق أن عرفت بعض الشبان معرفة مقتضبة لأيام، وكنت أتخلى عنهم جميعا بعد أن يخيل إلي أنهم سخيفون، أو أنهم كانوا كذلك بالفعل.

- أنت شابة يافعة يا هبة، وقد بلغت الرابعة والعشرين، وينبغي أن تفكري في تأسيس حياتك الخاصة، فإن أجمل ما يصنعه الإنسان في حياته هو تكوين أسرة تحتويه، وتغمره سعادة.

- أنت أسرتي.

- اعتبريني سندك، أما الأسرة فلست أهلا لها، وقد فشلت في تكوينها من قبل.

أمسكت بذراعه بكلتا يديها وأسندت رأسها عليه ثم قالت:

- إذن، أنت سندي.

- ما رأيك أن نبحث لك عن زوج صالح يا هبة؟

أفلتت ذراعه ونظرت إليه باستغراب.

- هل أنت جدي فيما تقول؟

- نعم.

- ما أغربك. عدت لشخصية الإمام القديمة.

فتح قولها منفذا لذكريات الماضي فطفت للسطح، فغرق في التفكير. اقتربت منه أكثر ووضعت رأسها على صدره، تتأسف في خفاء على الإشارة للماضي الذي يتلافى جمال الحديث عنه دوما، ثم قالت وهي تلهج بصوت حزين :

- **احتفظ بحلولك هذه لنفسك ولا تحدثني بها مجددا.**

مسح على رأسها بحنان ثم همس في أذنها.

- **حدثتك بما يمكن أن يحدث به أي أب ابنته.**

ما إن سمعت قوله حتى انفلتت من حضنه وركضت صوب غرفتها وأغلقتها عليها، فظل واجما في مكانه تتخاطفه الأفكار خطفا خطفا..

المطعم تسير أحواله للأحسن، يوسف يتفانى في عمله ويفرد له كل وقته، سارة أصبحت تعمل معه في المطعم، صارا مطمئنين على ابنتهما لأنها تلتحق بهما في المطعم وقتما شاءت، وذاك أمر كان متعذرا في السابق. جاء جمال وهبة في وقت متأخر للمطعم، استقبلهما يوسف الذي كان يستعد للإقفال بترحاب كبير، نادى على سارة التي أسرعت في الخروج متجهة نحو هبة تحييها في حرارة بقبل على وجنتيها بينما صافحت جمال في احترام كبير، ربما نشأ هذا الاحترام مما حدثها به يوسف. اتجه جمال نحو إحدى الطاولات رفقة يوسف بينما رافقت هبة سارة للمطبخ لترى التجديد الذي طاله. فمنذ أيام حينما تولى يوسف شؤون المطعم بدأ الاشتغال بحماس كبير، وسعى إلى التجديد في كل شيء، حتى أنه فكر في استبدال النادل الذي لاحظ أنه قد كبر في العمر، وفتر حماسه، بنادل شاب كله حيوية ونشاط، لكن جمال عارض الفكرة معارضة شديدة، بل رفض حتى الخوض في ذلك النقاش، سأل جمال يوسف عن سير العمل فطمأنه أن كل شيء بخير، لكن تعابير وجهه كانت تشي أن هناك حديثا يريد أن يلقيه لكنه يتحرج منه، فطن جمال للأمر، فقال :

- ما الذي يزعجك يا يوسف؟ أصدقني القول.
- لا شيء، انس الأمر.
- النادل؟ أليس كذلك.
- نعم، لكن انس الأمر، أعرف أنك لا تريد مناقشته.
- سنتناقش الأمر بعد أن نناقش اتفاق العمل. فما جئنا إلا لنضع الأمور في نصابها.

التحقت بهما هبة، فطلب منها جمال أن تنادي على سارة أيضا، قام يوسف ليناديها وهو يطلب من هبة أن تجلس احتراما لها، لكنها أصرت تواضعا منها، جلس الأربعة وساد الصمت بينهم، كالصمت الذي يسود بين الأسر المسيحية وهي تستعد لتلاوة صلاة المائدة، إلى أن كسر جمال هذا الصمت بقوله وهو ينظر إلى يوسف.

- إن المطعم يسير نحو الأفضل. وأنا أحييك أنت وزوجك على جهودكما. لكن لا بد مما لا بد منه كما يقول المناطقة، لقد أجلنا عقد اتفاق العمل لأني أردت أن أعطيك بعض الأيام لتألف فيها المطعم، وتُقيّم وضعك، فإن كنت راضيا عقدنا اتفاقنا، وإن أردت الانسحاب هان ذلك عليك وعلينا. فما رأيك إذن يا يوسف؟ هل تود الاستمرار في تسيير المطعم؟.
- نعم. أكيد.
- إذن سأقترح عليك الاتفاق لنناقشه.
- تفضل.
- حسنا. الاقتراح كالآتي. زوجك ستأخذ أجرها الشهري، وإني لا أرى بأسا إن كان مثل الذي كانت تأخذه في عملها السابق. بينما أنت ستأخذ نسبة مئوية من الأرباح. وأنا أقترح عليك نسبة ربع الأرباح. فما رأيك ؟.
- افعل ما شئت يا جمال.

سارة امتقع لونها وودت لو تصفع زوجها، لم تنتظر منه كل هذا الاستسلام، تريده أن يفاوض، لكن يوسف يستحيي من جمال، نظرت سارة إلى يوسف بازدراء، جمال فهم كل شيء، نظر إلى يوسف الذي أحنى هامته، واستقر نظره على الطاولة متجنبا النظر في عيني زوجته اللوامة، ثم قال:

- يوسف، أظن أن النسبة لم ترضيك، ما رأيك بنسبة الثلث ؟.

عادت الدماء إلى آديم سارة بعدما اصفر وجهها يأسا من زوجها. قال جمال مبتسما ابتسامة الرضا.

موافق. خيرا ان شاء الله.

هبة تتابع كل شيء بصمت. لم يرقها تنازل جمال عن نسبة الربع واستبدالها بالثلث، لكنها تثق به. فهي قد فوضت كل أمورها له. قال جمال :

ننتقل الآن إلى المسألة الثانية. وهي مسألة النادل. تنبهت حواس يوسف لنقاش المسألة، فهو مؤمن بالطاقات الشابة وعازم على رفع أرباح المطعم. النادل سيبقى في هذا المطعم للأبد. لا سبيل إلى طرده، تربطه بالمكان حالة نفسية، وتربطنا به هذه الحالة كذلك. هو منا ونحن منه، ولتضخ دماء جديدة في شرايين المطعم، وظف نادلا جديدا، لكن سنبقي على السابق. وسيحظى بنفس المعاملة الحسنة والاحترام الذي اعتاد أن يقابل به، ولأنه كبر ولم يعد قادرا على التنقل بين الطاولات فسيكون هو المسؤول عن الصراف والحسابات.

سارة انقلب احترامها لجمال إلى توجس وما يشبه البغض، حدسها الأنثوي يخبرها أن الرجل ذكي يعرف ما يصنع، فتعيينه للنادل القديم مسؤولا عن كل الحسابات يحد من حريتها هي وزوجها في إدارة المطعم، أما يوسف فلم تراوده هذه الهواجس أبدا، فهو متحمس للعمل ولتطويره، وأمر الحسابات لا يهمه ما دام لا ينوي الاختلاس، ولا أكل مال الحرام، هو يعرف أن أرباحه مرتبطة بجده، وفي ذلك ما يطمئن، فرد على جمال:

- حسنا لا إشكال في ذلك.
- المسألة الثالثة وهي مسألة قانونية. عملنا هذا ينبغي أن يكون قانونيا. ستبرم عقدة بينك وبين صاحبة المطعم.
- لا بأس بذلك إن كان الأمر يريحكم يا جمال.

فتح جمال محفظته وأخرج العقدة التي كتبها وناولها ليوسف، قرأها يوسف فتغيرت ملامح وجهه كأنه تلقى نبأ وفاة عزيز، خطفت سارة الورقة من يده بعدما لاحظت وجومه. هبة لم تفهم شيئا مما يحدث، هي لا تعلم شيئا، جمال خطط لكل شيء وحده، قال جمال وهو ينظر إلى يوسف.

- ما الأمر يا صديقي. هل لديك أي تحفظ مما كتب في العقد؟
- ورد في العقد أني سأشتغل في المطعم كنادل فحسب مقابل أجر شهري.
- نعم، بالضبط يا يوسف.
- ألا تثق بي يا جمال.
- أثق بك. لكن المسألة لا تتعلق بالثقة.
- ألست شريكا في المطعم.
- نعم أنت كذلك في الواقع، لكن لست شريكا على الأوراق.
- لكن ماذا لو بذلت كل جهدي في تطوير المطعم، وأتعرض بعدها للطرد.
- أعدك ألا يحدث ذلك. ستستمر في عملك إلى أن تشاء الرحيل، وتفكيرك في الطرد مجرد احتمال، مثلما يحتمل أن تفقد صوابك فتطلب

نصيبك من المطعم ذات يوم لو أنه تم إثبات أنك شريك فيه على الأوراق، وأنا اعطيك كل الوقت للتقرير يا صديقي راجيا ألا تستسلم للظنون، وفوق كل شيء ستجمع ثروة صغيرة في وقت وجيز تمكنك من إنجاز مشروعك الخاص إن قررت التخلي عن هذا العمل.

اللهجة التي يتحدث بها جمال لهجة جديدة على يوسف، فقد اعتاده الرجل وديعا ليِّن القول، أما هبة فكبر جمال في عينيها أكثر، فهي الأخرى لم تعتد عليه بهذه الصرامة، وكم تحب فيه تغليبه العقل على الشعور في المواطن التي تقتضي ذلك، بعكسها هي التي لم تفلح يوما في جعل الشعور تحت سلطة العقل، أما سارة فالاحترام الذي أكنته لجمال انقلب حنقا وبغضا، إنه ثعلب ماكر، هذا ما صارت تراه فيه، لكن سؤالا واحدا يعذبها، ما علاقته بهذه الشابة صاحبة المطعم، ولماذا تُوكل إليه كل أمور حياتها، لماذا هي عاجزة أمامه هكذا، ولماذا يفكر هو في مصلحتها بكل هذا التفاني والإتقان؟ كل تلك التساؤلات كانت تعصف بذهنها فلا تجد لها جوابا..

استأذن يوسف في الانصراف هو وسارة للتشاور، نظرت هبة إلى جمال نظرة إعجاب، بل هي نظرة فيها شيء من الهيام. ثم قبلته في غفلة منه على وجنتيه، شعر بالحرج، وتوهم أن الناس في المطعم ينظرون إليه رغم أن المطعم كان فارغا. أمسكت بذراعه ووضعت رأسها على كتفه. ثم همس في أذنها.

- لا تعيدي مثل هذا التصرف. حتى لا يساء الظن بنا.
- لا أحد هنا غير صديقك وزوجه.
- وهل تظنين أنهما منزهين من الظنون؟

- لا أهتم بظنونهما.

نظر إليها وهو يصطنع اللوم والعتاب، كأنه يهذب طفلة صغيرة، فقالت وهي تنظر إليه نظرة طفولية حالمة.

- حسنا لن أفعل ذلك مجددا.
- جميل.
- أغمض عينيك.
- لماذا ؟
- أريد أن أعطيك شيئا.
- ما هو ؟
- أغمض عينيك وستعلم. الأشياء الجميلة نستقبلها مغمضي الأعين دائما.
- فلنؤجل ذلك حتى ننتهي من هذا.

بإصرار طفولي قالت :

- بل الآن.
- حسنا.

أغمض جمال عينيه فانتظر الهدية، وإذا بشفتين دافئتين تنطبقان على شفتيه، انتفض كالطير المذبوح، ودفع هبة بعنف شديد، شهق بقوة كمن ينتشل من الغرق بعد أن لامست روحه الموت. تسارعت ضربات قلبه وانتابه غضب شديد، أرادت هبة أن تحدثه فأشار لها بالصمت، أخرج من جيبه قارورة دواء، شرب حبة بعنف، وحتى

الكأس وضعه على الطاولة بعنف، أرادت هبة أن تتحدث فأشار إليها أن تصمت مجددا. عاد يوسف وسارة وحاول جمال أن يخفي في لمح البصر انفعاله وغضبه. جلسا إلى الطاولة. ثم قال جمال مصطنعا الهدوء.

- ما القرار ؟.

رد يوسف وهو يمد يده لمصافحة جمال.

- أرجو أن نكون عند حسن الظن صديقي.

قام جمال لينصرف وهو يقول ليوسف.

سآتي بعقد عمل سارة غدا أيضا، وسنقوم بتسوية كل شيء. مع السلامة .

انصرف وهبة تسرع في توديع سارة للحاق به.. ركب السيارة ولم ينبس ببنت شفة. نظرت إليه أكثر من مرة في الطريق وكانت تجده واجما وجوما شديدا، كادت أن تحدثه أكثر من مرة، أخافها غضبه فكانت تلتزم الصمت، بلغا المنزل. ترجل جمال من السيارة بينما بقيت هي غارقة في التفكير، مسندة رأسها على المقود، دلف هو إلى الداخل، ومباشرة توجه إلى الحمام، أسلم جسده للماء الدافئ، قبلة هبة تنهش روحه وتعذبه أشد العذاب، غسل شفتيه، حاول أن يتخلص من آثار تلك القبلة فما وجد إلى ذلك سبيلا، الناس يسعدون بمثل تلك القبل، فكيف يتعذب هو بها !، هبة في الردهة تنتظر خروجه لتحادثه، لا تدري هل تعتذر، أم تثور عليه، هل كانت قبلتها له تستحق أن تعتذر عليها ؟ أم أنها ينبغي أن تثور عليه لأنه رفضها، وبث فيه كل ذلك الروع، خرج جمال من الحمام، وتوجه إلى غرفته مطأطأ الرأس كمن انهزم في حرب دون أن ينظر إلى هبة، آلمها تصرفه هذا، دخلت غرفتها، حاولت أن تدفع عنها

وساوس الشيطان، وكل الغضب الذي يتأجج به صدرها، وأن تستسلم للنوم ففشلت، قامت وتوجهت لغرفة جمال، ولأول مرة لم تطرق الباب، بل دخلت عنوة دون سابق إنذار، لقد اقتحمت الغرفة، من أين لها كل هذه الجرأة ؟، أتكون هي جرأة العشق والحب ؟ لعلها بفعلها هذا قررت أن تثور. كان في نيتها أن تنفجر في وجهه ما إن تدخل الغرفة، لأن تصرفاته غير مقبولة معها، تريد أن تعرف لما يقيم بينهما سدا من زبر الحديد قد أفرغ عليه قطرا، نظرت إليه. فإذا به قد غفا، تأملته جليا. وتساءلت ما الذي تريده من الرجل؟ ما طبيعة المشاعر التي تحملها اتجاهه ؟. كيف صار له هذا الأثر في حياتها ؟. هل من المعقول أن تعلقها به مثل تعلق أمها ؟، هي شابة صغيرة، وهو رجل أضنته التجارب فكيف انجذبت إليه؟، وما أهمية انجذابها إن كان هو يعتبرها مثل ابنته، ولا يستطيع أن يبادلها الشعور نفسه، هي تحكم عاطفتها وهو يحكم عقله، فكيف يتوافق العقل والشعور ؟ ولكل منهما سبله الخاصة.

جلست على طرف السرير تتأمله من جديد، وهي تحاول أن تهدئ من روعها تنشد الاهتداء إلى فهم أعمق لمشاعرها، مشاعرها التي دفعتها في لحظة إلى أن تندس مع جمال في السرير، وإلى أن تضع رأسها فوق صدره، وهي تقول بصوت مهموس مستسلمة :

- كل ما أعرفه هو أني أحبك.

ثم أغمضت عينيها واستسلمت لنوم عميق، فتح عينيه واصطدم نظره بخصلات شعرها. لم يسمح لكلمة أحبك أن تتجاوز مسمعه، وحاول أن يضبط أنفاسه حتى لا تتسارع فيعلو صدره وينخفض، فتكتشف هبة أنه مستيقظ، وأن كلمة أحبك جعلته

يضطرب.. حاول النوم فجفاه. ظل شاخصا ببصره إلى السقف حتى الصباح. حتى قامت هبة لتتجه إلى الجامعة.

قام جمال من فراشه منكسرا، استحم بالماء البارد، خرج من الحمام ثم تناول ورقة وقلما، خط رسالة وجد صعوبة كبيرة في كتابتها، كأنه سيكتب لأول مرة، أو أن أحدهم يصوب بندقية نحو رأسه، وضع الرسالة فوق الطاولة، ثم خرج وألقى بالمفاتيح من شباك صغير أعلى الباب.

عادت هبة وما إن تخطت عتبة الباب حتى فوجئت بمفاتيح جمال على الأرض، خفق فؤادها خفقانا شديدا، عرفت أنه فر من الأسر، خرجت تجري لعلها تجده ما يزال قريبا، لكنها عادت تجر أذيال الخيبة ولندم على ما صدر منها، جلست على الأريكة تغطي وجهها بكفيها تستمطر من عينيها لؤلؤا، وما إن نزعت كفيها عن وجهها حتى تراءت لها رسالة جمال، مدت يدها لتلتقطها فتسمرت، حارت اليد بين أمر العقل بالتقاط الورقة وبين وجل الفؤاد مما هو مكتوب فيها، ليرجح الفضول كفة أوامر العقل وتلتقط هبة الرسالة التي توسمت أن تجد فيها الشرح الكافي والجواب الشافي، فطفقت تقرأ الرسالة :

لست عالمي

وأنت تقرئين هذه الرسالة فذلك يعني أني رحلت.

بنيتي هبة. أناديك بابنتي، وإن كنت تكرهين ذلك وتمقته نفسك، لكني مضطر أن أناديك بابنتي. لأنه الصواب ولأنه عين العقل. فأنت تحبين لو أني ترب لك، أو

لعلك تتخيلينني كذلك، والحقيقة أني رجل عجوز، وأنت كاعب في عمر الزهور، ولا أظنني أجانب الصواب إن ناديتك بابنتي.

الكلام عما أريد الإفصاح عنه صعب، وأرجو أن تلتمسي لي الأعذار، وتصفحي عن كل السقطات والزلات الي قد يتضمنها كلامي. القلم يرتجف بيدي لا يدري أي الأفكار المضطربة في فكري يخط. وهل يخط الأفكار وحدها، أم أ خط معها الخواطر وما يتأجج به الوجدان؟ سأكتب فحسب، سأكتب وأطوي الورقة دون أن ألقي على أسطرها نظرة أخيرة، مراجعة ما نكتبه دائما يثير فينا رغبة قاسية لتغيير المكتوب. تغرينا هذه المراجعة بالحذف والتعديل.. ولا أريد لكلماتي الأخيرة أن تعبث بها أيدي التعديل، أريدها عذراء..

لعلك تفطنت أن للعنوان رسالة يا هبة. لست عالمي بكسر التاء. وقد تستغربين لهذا العنوان فتتوجسين أني لم أكِنّ لك شعورا أبدا، وهذا خطأ، لست عالمي فيما يتعلق بحب العشاق، لكن كابنة فأنت عالمي، أنت الابنة التي لم أنجبها، أحببتك أول مرة في أحاديث والدتك حليمة، تبنيتك في خيالي دون أن أراك، وأفردت لك حبا أبويا كبيرا، لقد كانت والدتك أحيانا تتراخى في اتخاذ احتياطات منع الحمل لكني كنت أعوض تراخيها بالحرص الشديد، لأني لم أشأ أن ينقص حبها لك بمجيء مولود جديد، مولود لم أكن في حاجة إليه أيضا، لأني تبنيتك في خيالي كما قلت، وشاركت والدتك حبك، ولعله الحب الذي دفعني إلى محاولتي اختطافك، لنكون نحن الثلاثة معا، لكن القدر كانت له حكاية أخرى، اختار أن تكونوا أنتم الثلاثة معا..، وربما كان ذلك هو عين العقل والمنطق، وأنت ترين أن للقدر حكاية جديدة جمعت بيننا بعد ردح ليس باليسير من الزمن.

هبة إن لك فضلا كبيرا علي، فقد استطعت بمساعدتك أن أألفَ هذه الدنيا الجديدة وأساير هذه الحياة، كانت بداياتنا من أجمل البدايات وكم أأسف على هذه النهاية، لقد رفعت بيننا الكلفة منذ اللقاءات الأولى واطمأن كل واحد منا لصاحبه، ظننت أني أفهمك وقادر على سبر أغوار تفكيرك، وإذا بك مع الأيام تشبهين النصوص في غموضك وإلغازك، حاولت قراءتك وفهمك قراءتي وفهمي للنصوص، وكل قراءة، أو فهم كانت مجرد تأويل. تأويل أحالني دائما على شيء واحد، وهو أن مشاعرك بدأت تتمرد عليك، وتتجه بك إلى الاستسلام للرجل الذي أحبته أمك، حاولت أن أعيد مشاعرك لنصابها بلعب دور الأب أحيانا، لكن أنّى لرجل عجوز منهك مثلي أن يصد، ويغير مشاعر فتية كمشاعرك؟، كنت أظن أنها مجرد نزوات عابرة سرعان ما ستندثر إن أنا واجهتها بالإعراض والتجاهل، لكن ظني كان خاطئا. فقد بدا أنك لم تكوني مصممة على التراجع، كانت مشاعرك أكبر من أن تخضع للعقل الواعي أو أن تأبه لتجاهلي لها، كانت قبلتك لي في المطعم التجلي الأول لثورة مشاعرك، لينبثق التجلي الثاني في اليوم نفسه باعترافك أنك تحبينني همسا معتقدة أني مستغرق في النوم.

لقد آلمني اعترافك، وأوقد فتيل الفوضى بداخلي، ولست أدعي انفرادي بالألم، بل إني أعلم بألمك أيضا، فالناس يتألمون عندما يسعون فلا يجدون السبيل لما يحبونه. فكيف سيكون ألمك أنت، وما تحبينه أمامك، بل وبين يديك، لكن ليس لك الحق فيه. تألمنا معا رغم اختلاف ظروف وأسباب هذا الألم، لن أطيل عليك يا هبة، لا تشغلي نفسك بالبحث عني أبدا، بعد ثلاثة أيام ستصلك رسالة مني أسمح لكي فيها بزيارتي. وأرجو أن تفعلي. سأكون بانتظارك.

المخلص : جمال

ما أضيع اليومَ الذي عرفت فيه جمال مُحطم القلوب ومصلحها، فهي لا تعرف أتكرهه أم تتعلق به أكثر، وضعت بينها وبين التفكير سدا، ثم تفرغت للبكاء، بكت ما شاء لها الله أن تبكي، بكت حظها الشؤم، فهي تلتمس له الأعذار حينا، ثم تعود لتقسو عليه وعلى نفسها حينا آخر، إنه يدفعها لتخبر كل ألوان المشاعر، أمضت الأيام الثلاثة التي تلت رحيل جمال رهينة المحبسين، نفسها ومنزلها، تنظر الرسالة الموعودة التي يمكن أن تجمعها بعاشقها الذي تحبه حبا لا يقيده شرط، ولا يقف عند حد.

انتظرت الرسالة بلهفة كبيرة، فلم تتوصل بشيء، وفي المساء، رن هاتفها، فأجابت بعد تردد ولأي، ولو خوفها من أن يكون المتصل هو جمال ما كانت لترد على أي مكالمة تردها، كان النادل هو المتصل، أخبرها أن رسالة قد جاءتها من جمال، طلبت منه بلهجة حادة أن يأتيها بالرسالة حالا، فنفذ الأمر على عجل.

أتاها النادل بالرسالة، وببعض الوثائق الأخرى، تسلمتها ثم ركضت للداخل وهي تفض الرسالة مستعجلة قراءتها، أمسكت يدها المرتعشة بالورقة ثم قرأت :

ابنتي العزيزة لا شك أنك قد توصلت بالرسالة، ومعها عقد العمل الخاص بيوسف وسارة، لعلك تتساءلين لما أرسلت هذه الرسالة للمطعم عوض المنزل، فعلت ذلك لسبب بسيط، أعلم علم اليقين أنك لم تبرحي المنزل منذ أن غادرت، لقد أوصيت النادل أن يتصل بك بعد أن يستلم الرسالة مباشرة، وفي ذلك لون من الاطمئنان عليك.

إني الآن أأذن لك بالمجيء لرؤيتي. في هامش الرسالة رقمٌ هاتفي اتصلي به عندما تبلغين العنوان المدون على ظهر الرسالة. وسيأخذك صاحب الرقم حيث أكون.

المخلص : جمال

ما إن أنهت هبة قراءة الرسالة حتى، هدأ روعها وعادت نفسها تتغنى بالأمل رغم كل الجراح، إنه يأذن لها بلقائه، قضت ليلها كله تحلم بهذا الموعد، وكأنها عروس تنتظر أن تزف لزوجها، نامت وقتا قليلا مضطرة، وفي الصباح الباكر كانت تتجه لمدينة بني ملال التي بلغتها بعد لأي، فقد خيل إليها أنها تسير منذ أيام لهذه المدينة، بعد أن بلغتها توجهت نحو العنوان المكتوب في المظروف وهي منطقة تقع في أقصى المدينة، اتصلت بالرقم الموجود في الرسالة، فرد عليها شاب بالغ التهذيب، وما إن شرعت تشرح سبب اتصالها حتى قال لها بأدب جم :

- **عرفتك، أين أنت ؟**
- **أنا في البلدة التي دونت على الرسالة، على قارعة الطريق في سيارة حمراء اللون.**
- **انتظريني، دقائق فقط وسأكون عندك.**

هبة متشوقة للقاء جمال كل الشوق، دقائق فقط حتى ظهر شاب وسيم مهذب أمام سيارتها، اقترب منها وألقى عليها التحية :

- **أنت هبة ؟**
- **نعم.**
- **هل تسمحين لي أن أستقل السيارة، حتى أخذك لوجهتك.**
- **نعم تفضل.**
- **شكرا**

أدارت هبة محرك السيارة ونظرت للفتى تستفسره عن الوجهة، فأشار لها أن تسير مباشرة نحو الأمام، فامتثلت، وابتسامة تعلو شفتيها شغفا بقرب اللقاء، ولتكسر الصمت الذي ساد بينها وبين الفتى الذي بجانبها قالت :

- هل أنت قريب جمال ؟
- أنا أخوه.

دهشت دهشة عظيمة، فجمال لم يحدثها يوما عن عائلته، مسحت على رأس الفتى بمحبة، فكل ما يمت لجمال بصلة ستكن له ومودة احترام، طلب منها الفتى أن تنعطف يسارا في طريق غير معبدة، غير مأهولة بالسكان فاستجابت، احتمالات كثيرة تدور في خلدها، أقواها أن جمال معتكف في إحدى المغارات يمارسه طقوسه التأملية، وصلت السيارة لمكان لا يمكن أن تجتازه فترجل الفتى من السيارة، وطلب من هبة أن تتبعه، سارا حوالي مسافة نصف كيلومتر، حتى بلغا المقبرة، تقدم الفتى ودلف إليها وطلب من هبة أن تتبعه، ضربات قلبها تتسارع، انتابها ما يشبه الهلع، لكنها تمسكت وهي تمن النفس أن جمال هنا معتكف في مكان ما، فكثيرا ما يعتكف أمثاله في مثل هذه الأماكن لما توفره لهم من الطمأنينة والسكينة والهدوء، سار الفتى حتى وقف عند قبر صاحبه حديث عهد بالدفن، وأشار بأصبعه للقبر ثم قال ودمعة تترقرق من عينيه.

- هنا يرقد جمال

حملقت هبة في الفتى تتأكد أنها ليست في حلم، لكن عبرات الفتى التي تسيل على خديه لم تترك لها مجالا للشك، فتهادت وسقطت أرضا، ركض الفتى نحوها، ولولا أن تشجع وتجلد لولى فرارا، فقد كانت هبة تبدو جثة لا تحتاج إلا لجدث، أحضر

الفتى بعض الماء من جرة بباب المقبرة وضعت لعابري السبيل، سكب الماء على وجهها والخوف يقتله، استيقظت هبة مفزوعة، وارتمت على قبر جمال تقبل ترابه، وقد امتزج بدموعها، وصيحاتها تندثر بين شواهد القبور، ساعدها الفتى على الانسحاب، فمشت معه وهي تنتحب تسقط أرضا بين الحين والحين، تجلد الفتى، وصبر ما وسعه الصبر، فشاركها نحيبها، حتى أشفق أحدهما على الآخر، فتعانقا يواسيان بعضهما في فقدان الأخ والحبيب..

بلغا السيارة، أعادت هبة الفتى للمكان الذي أخذته منه، قبل أن ينزل من السيارة، تذكر شيئا، أخرج مظروفا من جيبه، وقدمه لهبة، ثم أسرع في الخطو حتى اختفى عن ناظريها، قررت أن تؤجل قراءة ما في المظروف حتى تبلغ البيضاء، لم تكن المسافة طويلة هذه المرة، سرعان ما بلغت البيضاء، إن الزمن يقصر ويطول تبعا لحالتنا الشعورية، دخلت منزلها، وحالها يبعث على الشفقة، فضّت المظروف وقرأت :

ابنتي العزيزة.

إذا ما كنت تقرئين هذه الرسالة فإني أعلم أنك تقرئينها مفجوعة دامعة العينين، حزينة أشد الحزن، وأعرف أنك ستمرين بأوقات صعبة شديدة التعقيد. أعرف كل ذلك، لعلك تتساءلين لما رحلت، أقول لك يا عزيزتي أنه كان لا بد من رحيلي، لم يكن أمامي من حل، تعبت. إن أقسى ما يمر بالإنسان في الحياة هو عندما يتأرجح عيشه بين التعب والألم.

هل تعلمين أن شوبنهاور رفض الحياة لأنها ألم، وهو لا يريد أن يتألم، وأن نيتشه رضي عن الحياة رغم آلامها، بل ومن أجل آلامها. بل لقد آثر الحياة على الموت،

وأرادها مرات متعددة، أما أنا فقد حاولت ألا أرفض الحياة كما رفضها الفيلسوف الأول رغم ما فيها من ألم، وحاولت التشبه بنيتشه فأقبلت عليها أطلبها بكل السبل لكني فشلت في مسعاي، لم أكن أعرف أي الطرق أسلك، عذبتني الهواجس والأفكار، لم أعد أستطيع الصمود، انهرت، وانهارت قلاعي الآيلة، حتى الجني حسن لم أعد أطيق رؤيته، لقد عاد لتعذيبي من جديد، فهو يدعي أنه بينه، وبين والدتك عهد وميثاق بأن يعتني بك إن هي غابت عن الدنيا، وأنه حارسك الخفي، ويرى أنه صاحب فضل كبير علي، إنه يتوعدني بعذاب أكبر من الأول إن لم أستجب لطلباتك، كنت مستعدا لأبقى معك وأستجيب لأي طلب منك، لكن أن أبادلك الحب الذي يتبادله العشاق، هذا ما عجزت وأعجز عنه، ما كان لأب أن يفعل ذلك، ولو قطع جسده من خلاف، انتظري، أظنك تتساءلين هل حسن حقيقي بالفعل ؟، أعرف أنك مؤمنة بوجوده حينا، شاكة مترددة حينا آخر، اليوم أعطيك الجواب يا ابنتي، حسن موجود بالفعل، وقد رأيته من قبل، لقد أصبح يخالط الناس، ولم يعد يأتيهم في أحلامهم ليلا فحسب، حسن تقمص دور حميد، واتخذ لنفسه زوجا، وهي صديقتك خديجتو، وقد سرق مني المذكرة التي كتبت فيها رواية سأنساك، وليصل إليك استخدم زوجته، واخترعا كل تلك القصص التي حدثتك بها خديجتو عن حياتها هي وحميد، واستطاعا أن يمهدا الطريق لك إلي، لولاهما ما استطعت أن تجديني ولا أن تعلمي بوجودي، أعلم أن كلامي لا يسلم به عقل، ولا يقبله منطق، لكن ستتأكدين حينما لن تجدي أثرا لصديقتك خديجتو، ولا لزوجها حميد، ستسألين عنهما ولن تجدي لهما أثرا، لقد خربت كل مخططاتهما، حرمتهما لذة الانتصار، لقد كانا معي حتى عندما كنت أهيء حبل المشنقة، سخرا مني، واتهماني بالجبن، قالا أني لا أمتلك الشجاعة لأضع حدا لحياتي، لكني بينت زيف اتهامهما..

قد تتساءلين لما اخترت الموت في بلدتي بالذات، لما لم أضع حدا لحياتي في منزلك أو بالقرب منك، صدقيني لقد فكرت في ذلك، أحببت أن تكوني أنت من يدفنني، لكني خشيت عليك من استجواب السلطات، وأنت المرهفة الحس الرقيقة الشعور، على الأقل هنا في بلدتي لن يتهم أحد، أهلي يعلمون بميولاتي الانتحارية التي لا تخفى عليهم، كما أني تركت ورقة في جيبي تبرأ كل الناس مما أقدمت عليه.

أعرف أنك مقبلة على حزن كبير سيلهيك عن نفسك وعن دراستك وعن المطعم، فأما عن نفسك فإنك ستجدينني معك كلما أغمضت عينيك، أما الدراسة فأرجو أن تتداركي ما قد يفوتك منها، أما المطعم فإني أجلت سفري للعالم الآخر حتى سويت أمره، فقد حرصت على تكليف يوسف بالمطعم مقابل ضمانات قوية لن تضيع معها حقوقك أبدا.

زوريني كلما وجدت لذلك سبيلا.

أحبك

التساؤلات تعصف بهبة، هل ما قاله جمال حقيقي ؟، هل الجني حسن سبب موته حقا ؟، والأدهى من ذلك هو أن جمال يدعي أن الجني حسن تقمص شخصية حميد زوج صديقتها خديجتو، وأنه موكل بحمايتها، هل جمال مريض نفسي كما تم تشخيصه، أم أن ما يقوله عن حسن حقيقي ؟ جمال يقول في رسالته أنها لن تجد أثرا لصديقتها خديجتو بعد موته.

هناك طريقة واحدة تقودها للحقيقة، حملت سماعة الهاتف واتصلت بخديجتو، بعد لحظات سمعت صوت خديجتو : فاطمأن قلبها..

عزيزتي مريم قد تندهشين من هذه العبارة التي
استهليت بها رسالتي، وقد
تنكرينها أشد ما يكون الإنكار، لكن كوني
على بينة أني لم أكتبها إلا بعد تفكير طويل. فأما أني
أحبك فهو شيء قديم وليس
بالجديد، وهو أمر لا يحتاج لبرهان أو تأكيد. فكل لحظة
جمعتنا معا، لو بعثت لشهدت
على حبنا وأقسمت عليه بأغلظ الأيمان. أما مسألة أني لم
أعد أستطيع العيش معك فهو
شيء طارئ مستجد.. شيء أنكره الحس والشعور قبل
العقل، ظننت هذا من نفثات الشيطان
فاستعذت بالله من همزاته، ووطنت نفسي على دفع هذه
الفكرة دفعا عنيفا عن خاطري قبل
أن تحكم سيطرتها علي. لكنها فكرة واجهت دفعي
العنيف لها بعنف أكبر، وطفقت تتخذ لها
في نفسي حيزا إلى أن صار أمر إنكارها ضربا من الجحود
والوهم.

عماد عشا

